معجم الحيارى

مجموعة قصصية

عمرو محمود

دار بيوند للنشر والتوزيع

obeikan.com

دار بيوند للنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة
محمد عزالدين

المدير العام
صبرينة غلمي

الطبعة الأولى
الكتاب: معجم الحيارى
المؤلف: عمرو محمود
تصنيف الكتاب:م . ج .قصصية
تصميم الغلاف: أحمد السعيد
إخراج داخلي: صبرينة غلمي
المقاس:٢٠*١٤
رقم الإيداع: ٢٩٢١١ / ٢٠١٧
الترقيم الدولي:٦-٠٦-٦٦٤٥-٩٧٧-٩٧٨

All Rights Reserved
Beyond for Publishing and Distribution
+٢ ٠١٠٩٥٦٠٠٠٠٧
beyond.dbh@gmail.com
www.facebook.com/beyond.PDH
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ودار النشر

الإهداء

إلى روح تلك البنت المسكينة التي لا أعرفها والتي صادف أن رأيتها لمرة واحدة في العمر و لمدة دقيقة واحدة أيضًا .. كانت في بادئ تلك الدقيقة تسير مسرعة على قدمين ثابتتين وفي ختام الدقيقة كانت مسلمة الروح لبارئها ..... وقع ذلك عندما كنت أسير في إتجاه شارع مكرم عبيد بالقاهرة ، وقبيل أن أعدو بقدمي فوق الطوار سبقتني هذه البنت ولا أعرف من أين أتت وكأنها هبطت من السماء وجدتها زجت أمامي مباشرة و بأقل من خطوة واحدة فتأخرت حركة قدمي بمقدار ثانية أو ثانيتين خشية الأصطدام بها ، بدا الأمر وكأن شيئًا يجذبها هي و يؤخرني أنا ، أسرعت المسكينة لتصعد الطوار قبلي ثم انزلقت للشارع في ذات اللحظة التي قررفيها سائق شاحنة أحمق الخطى أن يخترق صفوف الواقفين بالمحطة فيمسح بهم الأرض، في مشهد عبثي استحال دماء الناس وسمع دبيب الهلع واستحكمت قبضة الفوضى .. وبعد إنقضاء الصدمة التي استغرقت بضع ثوان ، والكل يتفقد نفسه ومن حوله ولا يدري من نجى من هذه المذبحة كيف نجى ..! وجدت تلك البنت المسكينة ملقية أمامي على الأرض و فستانها المخملي يغطيها بطريقة أشبه بالكفن فلا يظهر منها شيئًا ويدها ممدودة أسفل رأسها وكأنها غارقة في نومة هادئة منذ البارحة ، ومددت يدي أوقظها ، ولكن لاحت الفاجعة في الأفاق عندما لم أجد جزءًا من رأسها وكأنه انتزع نزعًا وظهر للعين ما بداخلها وتناثر على مقربة منها فتات من أحشاء رأسها .. و ما كان من الناس وقتئذ إلا أن واروا التراب على أجزاء مخها المتناثر على الإسفلت خشية أن تلتهمه قطط الشارع ... إليكي يا من اخذتي مكاني في ميتة لا أحبها لي ولا لأي واحد من البشر ، انتزعتي الموت

مـن فمـي وتركـت لـي حيـاة لا أرنْ كثيـرًا إليهـا هـذا العمـل تحيـة إلـى روحـك الطاهرة أيتها المسكينة التي لا أعرفها ..

حدث هذا في السابع عشر من شهر أكتوبر لعام ألفين و سبعة عشر **...**

obeikan.com

مقدمة ...

إليك يا عزيزي القارئ سبع قصص قصار نحيفة لم تسمن منهما إلا واحدة ، غفلتني وأخذت تلتهم جملاً وحكايا و تتجرع أكوابًا من لذائذ الكلمات التي أجرتها على ألسنة الأبطال حتى سمنت ، وسمنت حتى ثمنت و اغنتني من جوع قلمي الهائج الراغب دائمًا في نثر قبلاته على وجه الورق الأبيض فعلى غير إرادة مني أجده يستبيح كل ورقة يجدها ، يغريه بياضها الناصع وقدها الممشوق و وجهها الباسم و سطورها المزخرفة ، فيقسم اللئيم أن لا يتركها إلا وهي غارقة في حبره حتى قمة رأسها ، فيبادر بإختراق بياضها العذري ، و يعيد توزيع جسدها فلا تعود المسكينة كما كانت ويعود هو أشره مما كان .. أما عن العنوان فظللت أبحث عنه طيلة نقشي لحروف هذا الكتاب ولما استعصى عليّ وجوده سلمت إلى أن أقدمه لكم بلا عنوان ولكن حذرني أحدهم إلى أن ذلك يضعني تحت المسائلة الأدبية ، وناداني منادٍ بأن ابحث فضالتك أقرب مما تظن ، بحثت في عوالمي كثيرًا إلى أن ضبطت العنوان متقوقعًا في تكية الحيارى ، لاجئًا لأحضان الغرباء غارقًا في أحضان خلوته الجميلة ، فرنا إلى باسمًا وجذبني من ياقة قلبي لأنضم إلى جلستهم الروحية أشاركهم ترانيمهم عازفًا على أوتار الروح فألبسوني ثيابًا صوفيَّة فضفاضَة وطفقت أدور حول نفسي بثبات غارق في دنيا الله و هائمًا في زمرة الحيارى لعليّ أعثر على درب الوصول و تنكشف أمامي أسرار الهداية فأهبها لهؤلاء الحيارى المتعبين ، و أغزل من وحي كلماتي ترنيمة عشق أبدي وأضعها في معجم يتجرعه الحيارى ترياقًا تثمل بها آمال الهداية .

أما عن محتوى المعجم.

بداية سيدهشك عنوان الكتاب .. دعنا نقول أنه خط النهاية الذي يود كل حالم ، طامح أن يصل إليه وقلبه موليًا وجهته ، لربما يكون فيه الحلوى التي تنتظر تذوقها طويلاً..أو الدافع الذي تاه عن روحك زمنًا ..ففي هذه الحياة كلنا حائرون بقدر وجيز.. كلنا مررنا ذات يوم بواد التيه إما زائرين و إما مرابطين ، و تجرعنا مرارة الفقد لماء الحياة العذب .. و منا من عظمت حيرته حتى كاد يختفي الطريق من أمامه و أضمحلت معالمه ، ومنا من تعلم فن الخطوط العريضة وإتقان كشف الرسم الباهت منها وجعله واضحًا تمامًا..

حين تطل على عالمي هذا من نافذة القصص ستشرق في عينيك أشياء كثيرة تظهر جليًا مع كل واحدة من هؤلاء السبع قصص الغير عجاف ، في بادئها امرأة أشد حبًا من زليخة ولكن فتنتها جمال من روح لا جسد وبذات العقلية وقعت بحب من يقدرها ويهبها قدرًا من الإحترام لذاتها كامرأة قبل كل شئ لا صدرًا و أردافًا ، وتشدقت بآمال عودة حبيب ملئ حبه الجوارح على رغم أنه لم يسمحْ لهما بتجاذب أطراف الحديث للحظة واحدة ، وهناك نافذة ثانية تحكي عن كاتب عبقري راوده حلم الرفعة و ثمل بأحلام الشهرة و ثابر طويلاً حتى اعتلى رصيف الشهرة ولما ارتفع نجمه ، سرعان ما خسف به وبأحلامه الأرض فسجن ليخرج مرة أخرى ويأبى قلمه النشر بغير العبرية .. وإحداهن تومئ بعش للزوجية تصدعه الخيانة في البدء لتعمره هي نفسها بطريقة عجيبة ، و نتعرف فيها على مصطلح جديد نضيفه لمعجمنا الفريد و نسميه بالخيانة الجميلة وهي مؤكد ما كانت لتكون جميلة إلا إذا أقدم عليها خائن جميل و شاركته خائنة أيضًا جميلة ..

وقـرب المحطـة الأخيـرة لعـش الزوجيـة حبيبـان تخونهمـا الظـروف فتغـدو الكراسـي المتحركـة مصيرًا مؤلمًـا لأحدهما ، وتستحكم قبضـة القدر فيفترقـان فراق لا عودة له إلى أن يشعر الحر بأنه سلب حريته حينما تنـازل عن إختيـاره فيقول الحب كلمته فـي النهايـة و يحكم بـأمره فـي الخـواتيم .. أمـا الثلاث نوافذ الأخريات فواحدة تخص سيدة صعيدية وفي حضرة الصـعيد فلا يجوز الحذف و الإختصـار ، و التاليـة تخـص مجـذوب جذبـه الحـب و هـام بـه فـي أرض الله الواسعة سواح لا يحمل في جعبة قلبه إلا حبًا كبيرًا يسع العالم بأكملـه وأقصـى أمانيه أن تحمل أمعائه جرعة من عدس يثمل بهـا ويطعم عصـافيرها .. و أمـا الأخيرة فما هي إلا نافذة بيضاء لثورتنا البيضاء تحكـى علـى هامشـها حيـاة مـن نوع آخر فقدت قبلها و لما هبت نسائم الثـورة البيضـاء تم استدعائها من قبرها مرة أخرى ونفخ في جيفتها روح و صوت ثورة فعادت للحياة طواعية ، وليس هناك أجمل من صوت يحلو ويترنم بصوت الأقلام السعيدة والحالمة بالوصـول إلى معين الفائدة والأهداف المحققة.. فاقبل معي وهات يـد روحـك نلتمس سويًا أطراف الورد ونعانقُ أشجار الطريق وهـي تتهـادى ، ونلتمس شـعاع أمل اتـى خلسة من عتمة عالمنا المحيطة بنـا و ليلنـا البهيم فينبجس الأمل شـعاعًا جميلاً يطـل برأسـه مـن المعجم الـذي كتـب خصيصًـا لنـا نحـن الحيـارى ليرشـدنا إلـى حقيقة الدرب و الضياء و يكشف لنا وجوه سـالكيه .. ونتكـئ سويًا علـى وسـادة مـن الحكايـات الدافئـة .. التـي تتنطـق قائلـة " طـوبى للحيـارى وحيـرتهم و حواريهم " ..

شكر ..

أحمل الشكر براحة قلبي لكل من أعرفه ، بداية من أول رجل و امرأة تلقفتني أياديهم بحب غير مشروط ، فكانا خير أب و أم منحاني أكثر مما منح أبوين لوليدهما ، وأخوين آثرا أن يظلوا سندي في هذه الدنيا و أخت هي ابتسامتي المشرقة والتي حفظت لنا وجه أمي و طيبة أمي و فطرة أمي التي فطرها الله عليها ،تلك الفطرة التي تجلت في خالتي الصغرى التي ربتني ، وخالتي الكبرى التي ذهبتْ للقاء ربها منذ بضعة أشهر فأخذت معها جزءًا كبيرًا من قلبي، فتاه مني طريقًا طيبًا لقريتي ، وتناقصت القرية شارع ،وتناقص الشارع بيتًا وتناقص البيت حفنة من حنين وقبسًا من نور وفيضًا من دعوات طيبة افتقدتها .. رحمة الله على روحك يا طيبة , و أحمل الشكر لأهلي و أصدقائي و لقرية في صعيد مصر تدعى " عباد شارونة " نبتت كالوردة الغضة على ضفاف نهرنا الخالد ، وأدين بالمحبة لقاهرة المعز وما أعزها في قلبي سوى أنها بحق عزيزة سلمتها قلبي منذ الوهلة الأولى فأهدت إليّ نصفي الآخر زوجتي لأكتشف معها أن ما على الأرض حقيقة ما يستحق الحياة واستحققت أنا الحياة عندما أتت إلى متمثلة في صغيري و بؤبؤ عيني " أحمد " .. ولا أنسْ من منحني رأي ثاقب لكي أصل بالمعجم لبر الأمان فكانوا أمل ، مصلح و روميل و مريما ...

القصة الأولى: الحب على طريقة الهوانم..

هكذا جرت العادة منذ خمس سنوات فائتة وأنا أجئ إلى هنا أجلس في نفس المكان وعلى الطاولة ذاتها ، أطلب من النادل ذات الطلب كل يوم حتى بات يحفظه عن ظهر قلب ، فمتى حطت رحالي داخل مقهى جروبي الذي يقف شامخًا بوسط المدينة ملتحفًا بجمال القاهرة التي تقهرني رقتها و تأسرني بجمالها الآخاذ الذي دائمًا ما يجذبني من ياقة قلبي ..

تكفي دقيقة واحدة بعدما أجلس على كرسي لأجد النادل المخضرم يأتيني بقهوتي المعتادة.. تكفي نظرة خاطفة و إيماءة بسيطة يعقبها كلمة ترحيب معتادة و مألوفة تصاحب وضع القهوة أمامي ،، وهذا بالمناسبة ما يفعله مع كل زبائنه نشداناً للود ..

وحدها قهوتي هي من تعلم خفايا النفس و تقف على حقيقة سري القابع في حنايا قلبي الرقيق .. وحدها من رأت حبيبي الذي زفته إلى محياي لحظة عابرة ، كانت هي الشاهدة و هي رسول ذاك الحب الجميل ، فدق ناقوس القلب له منذ الوهلة الأولى و الصدفة الأولى هنا قبيل خمسة أعوام فائتة ..

نعم أنا لم أكلمه .. و لم نتبادلْ سوى نظرات عابرة .. لا لا لم تكن عابرة بل كانت متفحصة .. أذكر أني حدجته خلسة بنظرة متفحصة ريثما يرشف قهوته رشفات حانية متلذذة من شفاهه الرقيقة بعدما اكتست بلون القهوة البني الجميل و تناثر فتات حباتها المطحونة على أرجاء شفتيه الورديتين وظل هكذا هنيهة قبل أن يرسل لسانه الأحمر الجميل ليلملم ما رآن على تلك الشفاة المثيرة ، وددت لو تركني أزيل ما اصطبغت به شفتاه بطريقتي الخاصة كنت أحتاج فقط للحظات معدودة وسأعيد شفتاه كسابق عهدها ، أعرف أنني بإستطاعتي أن أنجز هذه المهمة في ثوان معدودة لكنى سأقوم بها على مهل ربما يستغرق

الأمر ساعة أو يوم أو بعض يوم ،نعم هي لحظات معدودة للقيام بالعمل ولكن باق الوقت هو بمثابة جزاء لي على عملي .. هكذا سيكون شرطي وقتئذ ... وبالطبع لن يرفضَ طلب بسيط كهذا.. فمن هذا الأحمق الذى سيرفض عرضًا مغريًا لهذه الدرجة من فتاة غاية في الروعة و النظافة مثلي .. ها يا لي من بلهاء .. لكني بلهاء جميلة .. كما أن بلاهتي لا تضرْ أحد! هذه حقيقة ؛ فلم يثبت على بلاهة أنها أودت بحياة أحد .. هناك فارق ضخم بين الحماقة و البلاهة لا يعرفه إلا أولوا الألباب ..

لا أخفي نفسي سرًا فإنني استطعت أن اقرأ ثريات نفسي و أن أرى حكاياتي كلها مجتمعة في مهد عينيه العسليتين اللوزيتين .. فلكم كان هذا ممتعًا حقًا أنا لا يمكنني أن أنسَ ذلك ما حييت .. يا رباه !!

كما أن بداخلي وازع إيماني يؤكد لي بأنه لا يمكن أن تكون هذه تتمة قصتنا .. محال أن ينتهي مآل الحكاية كلها هكذا بدون تتمة .. لأنها ببساطة قصة حقيقية وليست من نسج الخيال والعقل يقول إن الواقع في أحايين كثيرة تتفوق أحداثه و وقائعه على أحداث ووقائع الخيال ..

فلابد أن هذا الرجل الغامض سيأتي ، ويل لي إن لم يأتْ .. لا لا أقسم أنه سيأتي بل و سيأتى ذات يوم جاثيًا على ركبتيه يلتمس العفو و الرضا ..

الحقيقة لا يهم أن يجث على ركبتيه أو أن يظل واقفًا كالأبله.. المهم أن يعود .. كما أن الوضع جاثيًا على الركبة ربما يسبب له آلام في ركبتيه التي أؤكد أنها جميلة هي الأخرى ..

على كل حال سيعود عاجلاً أم آجلاً إلى هنا مرة أخرى ، و يجلس هنا أمامي و يطلب القهوة مثلي و ربما يخطئ النادل أيضًا و يعطيها لي قبل أن يتضح الخطأ و يعتذر النادل ثم يهم برفعها من أمامي مرة أخرى ، فينتفض هو واقفًا ينهره ولكن برفق عن تصرفه هذا الغير منطقى، ثم يقسم لي وللنادل بأن

يتركها أمامي .. فتنتابني الدهشة و أبوح لنفسي سرًا بإعتراف أن هذه يا ربي أخلاق ملوك ..

يقسم هذا الغريب بأن القهوة باتت لي .. هي قهوتي فهي باتت ملكي متى وضعت أمامي .. ثم يقول أنه من العيب أن يأخذ القهوة من أمام امرأة جميلة مثلي .. هكذا صرح وقتها و هكذا سيقول أيضًا و يردد مقولته العذبة للمرة الثانية .. و سوف تعجبني أيضًا كسابقتها .. هي لم تثير غرائز الإعجاب فقط بداخلي وقتها بل إن حجرًا كبيرًا القى في بحيرتي الأنثوية الراكدة فأصابت أسماكها بالغبطة و السرور.. مؤكد أنه لم يكن يجاملني مجاملة في غير محلها فأنا حقًا جميلة .. ليس هذا غرورًا مني لا سمح الله.. ولكن هناك شواهد على ذلك فأنا بيضاء و شعري كستنائي ناعم مسدل تلامس أطرافه قعيدتي .. ثم إن عيناي واسعتين جميلتين ، ممشوقة القد و أردافي مكتنزة بما يشتهيه الرجال في النساء .. كما أني يوميًا أنال حظي من معاكسات الرجال في الشارع والتي تنطق ألسنتهم الوقحة بألفاظ نابية تؤذي فطرتي النبيلة ، لكني في الحقيقة أشعر بابتسامة أجد صعوبة في إخفائها لمن يلق عليّ كلمة غزل رقيقة مهذبة ،غزل لكنه عفيف لا يتجاوز ذكر العين و الشعر والشفتين وربما يجمل الحكاية كلها في كلمة غاية في البساطة و الأدب مثل " صباح الفل على الفل " .. أما من يركنون إلى الأسلوب الوقح فهؤلاء لابد أن ينقرضوا من عالمنا أو يتم وضعهم في حظائر البهائم يأكلون و يتناكحون فقط لا غير ...

وهناك شاهد آخر أيضًا على جمالي فإن كثيرًا من الرجال من زملاء العمل يترددون إليّ فمنهم من يهبني نظرة حانية بلهاء ومنهم من يدفع عني ثمن الشاي أو القهوة ظنًا منه أنه بذلك يشريني فلا يهدأ لي بال حتى أرد له الصاع صاعين فيعرف أني لست ممن يشترون بهذه الطريقة الرخيصة .. وعلى رأس هؤلاء الأستاذ سيد العنتبلي مدير القسم والذي حاول خطبتي أكثر من مرة لكني رفضت رفضًا قاطعًا فإنني لا يمكن أن أتزوج من رجل هرم مثقل بالدهون

وله لغد موحش ورأس غبي وفوق كل هذا اسمه سيد أفندي العنتبلي، إن فداحة الاسم تقتلني يا سادة ..

كيف أتخلى عن اسمي آلحان هانم رستم ابنة رستم باشا البارودي و أصبح حرم سيد أفندي العنتبلي هذا شيء مثير للقرف ، كما أنه متزوج و يعول أسرة و أنه في الأربعين من عمره.. لكن لم يكن هذا كله سبب رفضي الأوحد ،لأني في إنتظار هذا الغائب كي يعودَ و يفز بي و أفز أنا أيضًا به و أقطع بذلك ألسنة الشك و الظنون التي تطل من رأسي في بعض الأحيان ..

آه لو تجرأ وقتها قليلاً هذا الأحمق و احتضنني وقت أن قال مقولته العذبة تلك .. والله لما مانعت .. نعم أنا خجولة ولا يمكنني تصور أنني أقدم على هكذا فعلة ولكن لم أجد أحدًا يحنو عليّ بهكذا كلمات رقيقة من قبل .. أخلاق النبلاء هذه غير متوفرة في هذه البلد فأنا أرى أن كل ما يحتاجه الرجل من المرأة هو فرجها و صدرها و أردافها هكذا تفضحهم أعينهم و تتجرأ ألسنتهم على ذكر ذلك صراحة أثناء المعاكسات اليومية التي هي بمثابة إسطوانة محفوظة مللت سماعها .. حتى النسوة يمتدحون ما يسمونه مؤهلات أنثوية بل و تكن صدورهم الحقد و تنطق أعينهم بالحسد لمن تمتاز عليهم بأرداف كبيرة أو صدر مكتنز أو بشرة صافية أو شعر طويل مثل شعري مثلاً..

لقد قابلت الكثير من هؤلاء المرضى للأسف حتى سئمتهم ..

لذا اسرني هذا الرجل بكلماته و تصرفه و نظراته الرقيقة التي كانت تأب النظر صراحة إلى عيني .. ثم أنني لأتسائل ماذا تحتاج المرأة أكثر من كلمات حانية صادقة تخرج من فم عذب ليتلقاها الفؤاد بالأحضان و تطرب لها حنايا الأضلع راقصة .. وماذا يأسر المرأة أكثر من أن تنال قدرًا من الإحترام لذاتها و مدحها و تقديرها لكونها امرأة قبل كل شئ لا صدرًا و أردافًا ..

آه لو عادَ نفس الموقف وآثر أن تظل القهوة أمامي سوف تعجبني القهوة أيضًا وسأبدي الإمتنان لهذا الصنيع الملكي ، كما أنني سأحافظ على السر و لن أبوح له بأني لم أشرب القهوة يومًا بل و أنني لم أكن أطيق رائحتها بالمرة ... لكنني تناولتها يومئذ للمرة الأولى خشية أن أرده خائبًا .. و أسبب له نوعًا من الحرج .. ما كان لي أن أفعل مثل ذلك ولو كنت بلهاء حقيقية ..

أذكر أن مذاق القهوة وقتئذ كان مرًا بعض الشيء ..

الحقيقة إن هذا كان في الرشفة الأولى فقط .. لكن إلتماع العسل في عينيه اللوزيتين التي لمحتهما تنظرُ إليّ في ودٍ وإحترام تتابع تذوقي للقهوة أحال مرارة القهوة إلى مشروب روحي له مذاق العسل و طعم الأثير و أثر النبيذ المعتق في الروح يسري .. فتناوبت عليها بقلب يفيض حبًا و حنينًا .. حتى أنني وددت حينئذ لو كان فنجان القهوة قدحًا ضخمًا ممتلئ عن آخره فأظل أشرب منه و أرتوي من نظرات عينيه ..

ومنذ ذلك اليوم و القهوة نبيذي و مياهي و عشقي و هيامي و خاتمة ليلي و فاتحة نهاري ..

آه كم أحبك يا من اهديتني إلى سر القهوة العجيب فأغرقت روحي فيه طواعية دون إكراه..

آه كم أحبك يا هذا ..آلا ويح شعورالخجل الذي انتابني وقتها كما انتابه هو الآخر و تشاركت أرواحنا فيه فلم نستطع تبادل الأحاديث و إلتهام حكايانا فأجلنا ذلك ليوم آخر .. و ها أنا ذا آتي إلي هنا كل يوم في إنتظار ذلك اليوم الذى أؤمن بقدومه إيمانًا راسخًا لا يزعزعه قول أو يشكك فيه حدث ..

آتي إلى هنا أحمل آمالي وأجدد إيماني بحلمى و أعلن تشدقي الدائم بحبائله ، آتي إلى هنا أنفرد بقهوتى الماتعة ، أحاكيها و أشكو لها هجر ذاك الحبيب الغريب .. أقسم أنني لن أتركه أبدًا .. كما أعلم أن خفقة قلب واحدة مني متى

أراه سيزول على إثرها كل ما تراكم من أرق و حزن و لوعة إنتظار في الخمس سنون العجاف الفائتة ، قبلة واحدة من فم متيم باستطاعتها أن تمحو آثام البعاد المقيتة.. عناق واحد قادر على منح الغفران لمن وأدت في هجره الأماني و تهدمت في فراقه الأحلام ..

ثم إني لسوف أعاتبه كثيرًا علي طول الغياب.. ، ثم و الله أيضًا لأنهرنه ..

نهرًا خفيفًا يمتزج بالخفة و المزاح طبعًا .. سأقول له " كيف تترك امرأة جميلة مثلي كل هذه المدة يا هذا .. أجبني إذًا !!

كيف تهجرها كل هذا الهجر أيها الأحمق !!

كلمة الأحمق هنا سأقولها على سبيل الدعابة و الخفة أستطيع وقتها أن أستخدم حاجبي الأيسر فالكل يجزم أني حين أرفع حاجبي هذا يبدو وجهي باعثًا على الضحكة و المرح .. كما أني سأقبله وقتما أنطق بهذا اللفظ .. ليس حبًا في القبل لا سمح الله ولكن خشية أن يزعجه لفظة الأحمق ثم ليتأكد أنها على سبيل النكتة و الدعابة .. وما أفسده اللسان يصلحه الحاجب و الشفتان ...

ثم سأقول له أيضًا مداعبة ..هل تعلم ف لسوف أقتلك اليوم جزاء لك على هجري طيلة خمسة أعوام ؟

ثم سأخرج له ورقةً و قلمًا و أقول له " اكتب وصيتك هنا إذا " .

و لسوف اسأله و أنا أشير لصدره : هل بداخل هذا الصدر يقبع قلب من لحم و دم ينبض مثل عوام البشر أم أنك ابتعت واحدًا من سوق المدينة قُد من حديد .. اخبرني إذًا ؟؟

آه .. كم أنا بلهاء .. يأتي هو الأول وبعد ذلك يأتي كل شئ تباعًا .. خطر لي الآن و أنا أهيم في أحلام اللقيا أنه يجب على أن أخبر مصلحة السجل المدني

كـي توقـف تسـجيل أيامًـا جديـدة وإضـافتها جُزافًـا إلـى عمـري حتـى أتمكـن مـن العثور على ذلك الأحمق ثم ليكتبوا بعد ذلك ما شائوا ..

هب أنه لا قدر الله أتى متأخرًا بعض الشئ و نظر في بطاقتي الشخصية ووجد أن هؤلاء الحمقى عدو من عمري ستون عامًا مثلا فأنا إذا سأصبح في نظره عجوزة أنهكها الهرم و فقدت كثيرًا من جمالها .. هل سيقبل من الزواج بعجوز بالغت الستين وقتئذ !!

أعتقد أنهم لن يقبلوا بل أقصد لن يعوا ما أقوله لهم .. ولمثل هذا لا يعي فرائض الحب و قوانينه إلا من خبره جيدًا.. و تجرع ترياقه .. وهؤلاء حمقى غارقون في روتين الحياة القاتل.. لا يقيموا للحب أودًا ولا يعوا لفرائضه سبيلاً .. تبًا لأحياء لا يخالج الحب أفئدتهم!! ..

لا أعرف كيف لواحد من البشر أن يعيش دون أن يمازجه الحب .

سيقولون أنني مجنونة .. حسنًا لا يهم .. سيأتي الوقت الذي يخرس الجميع ألسنتهم ..

عد يا هذا قبل أن ينهكني الملل !!

ترى ماذا يكون اسمه ..؟

مؤكد سيكون اسما جذابًا يليق بوسامته و رقته و جمال روحه و رجولته .

حسنًا ..!!

ها أنا ذا أنتظر ....

القصة الثانية: المجذوب

أنا حسين عبدالعال السلاموني – ذاك هو اسمي الذي طرق أذني في اليوم الأول الذي استشعرت فيه حاسة السمع ..

لا أعرف من أين أبدأ حكايتي ؟

و لا أعرف كيف لمثلي أن يبوح بما يجري له .. و ما يهم العالم أن يعرف بعض تفاصيل لحياة تافه مثلي – مجرد حشرة تائهة في غيابات هذا الكون الفسيح ، ذرة هواء ذاهبة أدراج الرياح دون إياب .. لا نفع منها و لا ضرر لوجودها – تستقي عيشها من نخر أعواد مهترئة من بقايا القدر ، ألعق الأواني بعدما انتهي منها أصحابها ، أبدو بهيكلي كالعصف المأكول .. من يبالي بغريب عن الدنيا ، يرتدي خرقة بالية ، أشعث أغبر يعيش حياته على الفتات .. يرنو إلى جحر نملة هادئ .. يلوذ به من سخط العالم المزعج و ضجيجه المتمرغ في الحماقة ..

صادفني للتو رؤية شئ زجاجي عملاق الإرتفاع في تلفاز مقهى لصيق بمسجد السيدة زينب .. و علمت أنه يدعى ناطح سحاب .. و أن لمثل هذا العملاق آلاف حول العالم ..أعجبني الاسم .. ناطحات سحاب .. وكأنه تمرد من البشر فأراد أن يظهر قوته أمام السحاب الشاهق و أراد أن ينطحه .. يقدم الإنسان كثيرًا على أفعال الحيوان ويكمن العجب في ذلك أنه يقدم على مثل هذه الأفعال في زهو و تفاخر .. إن لم يكن أصل الأنسان قردًا فمن الوارد أن يكون بقرة !! ..

لابد أن يقتنع العالم بهذا الإستنتاج إرتكازًا على أفعال الإنسان نفسه دونما حاجة للجوء لتحليلات عضوية و دراسات غبية نقسم بكمالها ثم بين الفينة و

الأخرى تخرج دراسة تكذبها ثم دراسة تكذب الأخرى و هكذا ندور في حلقات مفرغة ..

فهل من العقل أن يكون هناك ناطحات سحاب تتسع لحمل آلاف مؤلفة من البشر .. في حين أنني هنا أناطح السحاب حقيقة من أجل الحصول على جحر نملة أو خندق فأر أمتلكه و يكون فيه متكأي و أبني منه أحلامى البسيطة .. هذا إن حق لأمثالي أن ينعموا بالتفكير في الأحلام مثلما حق لآخرين تحقيقها .. يا لك من عالم أحمق تعيس يجر أذيال خيبته في ما يعده نجاحات ، و يلتهم ورقة التوت التي تغطي سوئته في غلظة و تجهم ..

إن جل ما أبحث عنه يتلخص في كلمة " قمقم " .. فأين لي به ؟

سال لعابي كردة فعل تلقائية ليرطب الجفاف الذي ألقم حلقي من حدة أحلامي التي على رغم بساطتها إلا أن ولادتها تبدو عسيرة حادة في واقع أليم أكثر حدة و أكثر وجعا خاصة لأمثالي ...

غرقت في فيض من الأحلام الجميلة .. و هامت أشواقي تنادي و تناجي حلم ناشد الخيال للتو .. و ابتسمت ابتسامة بلهاء تنم عن الرضا بأي حال من الأحوال ... هكذا اعتدت و ألفت الرضا بكل الأحوال فلم يعرف السخط قلبي أبدًا .. وتلك أعظم النعم التي ود مالكوا الأموال لو استعاروها أو استطاعوا شرائها بأثمان باهظة ولكن هيهات هيهات .. فما أبعد الراحة عن الباحث عن الثراء .. و ما أبعد الزهد عن عابد المال .. و بينما يرقص حلمي بمدفأ شرياني و أنا أشاهد ناطحات السحاب تمر أمامي في تقرير تلفزيوني عنها في قهوة المعلم بعرة السكري ...

إذ بإبن اللئيمة يهجوني و ينعتني بالتافه القذر أمرًا إياي بالإنصراف فورًا من أمام قهوته اللعينة حيث أنني أحجب الزبائن عنه ... اغرب عن وجهي أيها القذر اللعين .. هكذا قال لي ابن القديمة ..!

تبًا لك أيها الكلب السمين .. تبًا لك يا معلم بعرة و تبًا لكل البعر أمثالك ..

أنا و إن كنت تافه فأنني أفضل منك يكفي أن اسمي ليس بعرة .. و جسمي ليس كجسمك أيها البعرة شكلاً و مضمونًا و حقارةً .. أنني أتسائل عن ماهية اسمك هل من أسماك هذا يهزؤ بك إلى هذا الحد الذى جعله يمنحك اسم روث الحيوانات .. اضحكتني أيتها البعرة السمجة العفنة ..

يمتلك المعلم بعرة قهوة ضخمة .. لكنها ليست أضخم من جسده المستفحل في الإكتظاظ و التوحش و كأنه كرة لحم كبيرة منتفخة و محترقة في آن واحد ... وجهه الدميم الذى يقطر تكشيرًا و غضبًا طول الوقت و أنف بطشاء و قورة خطها الزمان بخطوط من قطران .. حتى امتلئت عن بكرة أبيها و جفن أسود و لغد ضخم ينسدل من أسفل رقبته المرتهلة .. و رأس مخيفة يتخللها بعض شعيرات مترامية على أطراف صحراء قاحلة تتخلل رأسه لكنه يستخدم هذه الشعيرات كأطراف يُغطى بها الصحراء القاحلة في منتصف رأسه إلا أنها مع أول تيار هواء تقفز كل شعرة في إتجاه منعكس للإتجاه الذي اجبرهم مشط المعلم عليه .. و تقف الشعيرات وقفة المحتد .

يخيل لي أنها نخل عالي يقف وسط صحراء كاحلة يتمايل مع الهواء لكن ما أن أنزل ببصري على باقي تفاصيل المعلم بعرة إلا و أجد أن الأمر أصبح كارثيًا .. حقًا أنه يعبر عن كارثة ضاحكة .. قنابل ضحك موقوتة ستنفجر من أفواه و قلوب الناظرين إليه ..

يخيل لي أن لو كنت موظفًا في السجل المدني .. و أتاني المعلم بعرة ذات يوم يطلب تغيير اسمه .. ل اقترحت عليه أن يسمي نفسه " بعير " .. تخيل : المعلم بعير .. و يغير يافطة القهوة لتصبح قهوة المعلم بعير .. سيصبح إذا قنبلة سخرية تمشي على الأرض !!

هممت بالضحك ساخرًا منه و قلت له أول مرة أرى بعرة تتكلم .. الأفضل للعالم أن لا نخرجك من أكياس القمامة فرائحتك مقززة .

ثم دون انتظار أطلقت العنان لقدماي قبل أن يشير إلى صبيانه أولاد االمتفانيين في رضائه حد العبادة .. ليفتكوا بي دونما سبب فقط إرضاءًا لذلك البعرة ..

فليذهب الكل للجحيم أو للنعيم لا يهمني ... و ليبق المعلم بعرة أو فليتغير إلى بعير كما يليق به أن يكون لا يهمني

أنا الآن جائع .. و ما دمت جائع فلا مجال للتفكير ... يبدو أن طبق العدس الذي التهمته ليلة البارحة في رحاب ستنا أم هاشم قد اندثر بعدما التهمته أمعائي ..

مدد يا ستي مدد .. !!

صحيح أنه كان في قعر الحلة التي أوقدها أهل البركة الملتفون حول مسجد ستنا ..ولكن أبت الشعرية الغارقة في لبه أن تتركه فغرقت أمعائي في لذاذة لا مثيل لها .. و انتشيت فرحًا مسرورًا .. فهذه أيام مباركة تسبق مولد أم هاشم ..

إذا فسوف نغرق في أطباق العدس حد الثمالة ... سوف أتجرعه في أكواب دونما حاجة لاستخدام رغيف العيش .. وهذا أفضل لأن خبز هذه الأيام بات يمتلئ بالأخشاب و المسامير و رؤوس و أجساد بعض الحشرات وكأن أصحاب المخابز في مسابقة لإنتاج أقذر رغيف خبز .. حسبي الله !!

كفي يا أمعائي عن التلوي .. سوف تنعمي بما لذ و طاب ..

في الطريق إلى أمي و أم العواجز ... انتابتني أفكار و حدثت نفسي قائلاً ..

" ما دمت تافهًا كما يقولون أو كما ينظر العالم لي .. إذن فأنا تافه و معتز بتفاهتي التي جردتني من هذا العالم و اخرجتني من محور إهتماماتهم .. بل و حررتني من أن يزج بي في واقعهم الأليم .. إذن فأنا لم أشارك في صنع هذا

الواقع و لم أزده بؤسًا ... فبؤسي لى و أنا كفيل به لكنـي لا أجتر بؤسًا لآخـرين ولا أتسبب في تعاسة واحدًا فقط من البشر ولا أكون أبدًا سببًا في بكاء أحد تلك هـي المسـألة .. تلـك هـي نقطـة اختلافـي بـل و تميـزي عـن البشـر الآخـرين السابحين في أنهار من الأذى صنعوها بأياديهم ..

أنا و أمثالي نبرأ أمام الله من هذا العالم كما يبرأ منا ... هكذا متساوين نحن .

فطـوبى للتـافهين .. طـوبى للمشـردين .. طـوبى للسـاخرين مـن الـدنيا ... طـوبى للسائحين الهائمين في دنيا الله .. دون أذية عباد الله .

طوبى ل سواح في بلاد الشوق " ..

اقترب من عتبة ستنا .. مدد يا خالق أم هاشم مدد ...

ينتابني خشوع غريب و لـج إلـى صـدرى للتو , هو شـعور ب الأريحيـة التامـة منذ أن وقع بصري على المسجد بعد أن تـزين فـي حلتـه الجديدة المعتـادة قبيـل مولد أمنا ..

و أزدان بالمصابيح بل الحق نقول إن المصابيح هي من إزدانت به ..

استعدادًا للاحتفال بالمولد الذي ستحل ذكراه العطرة بعد أيام من الآن ..

شعور الأريحية قارب من أن ينسيني شعور الجوع الغاشم...

هناك صوت ابتهال قادم مـن قلـب مسـجد سـتنا .. أنـا أعـرف هـذا الصـوت الـذي يشق عنان السماء .. و الذي يغوص في الغشوع .

و يحوي بين جنباته عذوبة كعذوبة ماء زمزم .. يتدفق سلسًا إلـى حنايـا القلـوب كماء نهرنا الطيب الجاري قبل أن يضع الإنسان عليه قذارة بصمته ..

صوت مبتهل المسجد يبتهل بصوت عذب ينتابه خشوع مزلزل يقول " قصدت باب الرجا و الناس قد رقدوا .. و بت أشكو إلى مولاى ما أجد ... و قلت يا أملي في كل نائبة .. يامن عليه لكشف الضر أعتمد " ..

الله .. الله .. الله يفتح عليك يا مولانا .

انا الآن في مواجهة الباب الرئيسي لمسجد السيدة زينب .. أم العواجز .. أتيتك يا أمنا فلتحنو على الفقير المتهاذي .. و خذي بيديه قبل أن يندرج ل واد التيه و ضعيه على طريق النور كي يبصر قلبه الضعيف و تهنئ نفسه الطيبة بملاقاة أحباب الله الهائمين في روحانيات عليا ، الزاهدين في الدنيا المطلقين متاعها و زخرفها بالثلاثة ..

نزعت عني نعلي المهترء على باب المسجد و وضعته تحت إبطي الأيسر وكأنني أخاف سرقته .. هذه مزحة طبعًا .. فمن يسرق مثل هذا ليذري به نفسه.. في حقيقة الأمر أنا لا أخاف السارقين بقدر خوفي من عامل النظافة أن يلقي به في عربته باعتباره مخلفات قذرة ، ومعه في ذلك حق .. في حين تعلق بكتفي الأيمن جل ما أملك من ملابس مهترئة و مشط قديم تساقطت أسنانه من العجز إلا أنني أعده من ممتلكاتي الثمينة.. و ربع مرآة يدوية شاخ منها ثلاث أرباع و بقي الباقي يعزيني و أعزيه من حين لآخر .. أنظر إلى نفسي من خلاله و أجلس أضحك على هيئتي و أسخر مني ..بل أنني أحيانًا أضحك حتى يبتل وجهي و تغرق لحيتي الكثيفة ..

سمعت صوت عال أجش يفزع قائلاً .. الله يفتح عليك وعلى أمك يا شيخ إسماعين ..

من هذا الذي أرى ؟؟

إنه صديقي فتحي الأسيوطي ..

هرولت إليه و عانقته باسمًا .. إنه من المحبين الأبرار ل آل البيت .. الدائم الزيارة ل مقام ستنا .

يختفي قدر ما يختفي لكنه سرعان ما يظهر حين يحين ميعاد موالد أهل البيت جميعهم .. و ل صديقي فتحي قصة طويلة تمتد أرجائها من أرض الله الواسعة في أسيوط الى قاهرة المعز متشابكة تفاصيلها ككرة الخيط و معقدة .. لكنه آثر السلامة و ترك كل شئ لله .. و اختار أن يلتحق بنا و نكون نحن الهائمين في الحب .. حب الله و حب الناس كل الناس .. نحن الباحثين عن الحب أينما يكون يجدنا .. و أينما يجرفنا تياره ننجرف معه .. ها نحن نعتنق الحب مذهبًا لا مصلحة ..

فقط الحب لذات الحب .. نحن التافهين في نظر البعض ..نحن الضاربين لزخرف الدنيا و متاعها المعروف بالقديمة .. القديمة هنا ليست رمزًا بقدر ما هي جل ما نملك .. فنحن لا نملك جديدًا كي نضربَ به.. ولو امتلكنا جديدًا لضربنا به أوجه الكره و البغضاء أينما وجدت و قطعناه وما استحببنا أن نختال فخورين بحذاء جديد و جل الناس حولنا ترفل في خرق بالية وأحذية مهترئة .. هذا لعمري لكفر بيّن ..

بينما نتجاذب أطراف الحديث ..

فإذ بأذان الحق يباغتنا فجأة .. يرتفع عاليًا يشق عنان السماء .. فوقفت متخيلاً أن الآذان المنبعث من مسجد ستنا بدأ و كأنه يملأ الدنيا بأسرها ..

سبح أذان الفجر فوق أمواج الليل الساكنة .. و ترك في النفس خشوع مبكي .. و زرفت الأعين دموع الخشية دون أن ندري ..

و كأن الدنيا كلها توقفت إجلالاً و تعظيمًا لأذان الحق .. العصافير استكانت فوق أشجارها .. حتى الجماد و النبات سبق الإنسان في خشوعه .. و هبت نسائم الفجر العليلة في هدوء و سكينة تنثر على أرجاء الأرض سلامًا طيبًا و حبورًا .. فقال صديقي دامت الأرض ما دامت الطيبة و الطهر و زالت الأرض بزوالهما ....

و من كل صوب و حدب اندفع الملبون لنداء الحق لداخل المسجد الكبير من كافة مداخله و ازدحمت اماكن الوضوء أقبلت جموع المصلين و كأن الملائكة تحفهم .. و تكاد تقفز من وجوههم كافة المشاعر الطيبة .. وأقبل العجائز يثبتون الأرض بعكاكيزهم وينثرون تسابيحهم المتناثرة من بين شفاههم الرقيقة...

فندت عني آهة قلت على إثرها .. سبحان الله ، ما الجنة إذًا إن لم تكن هذه اللحظات الطاهرة التي نعيشها !

لكزني صديقي فتحي الأسيوطي و غمغم قائلاً : هيا بنا نلحق الجنة قبل أن تغلق أبواب فضلها ..

ثم بعد الصلاة .. لك عندي عزومة على فطير من اللي قلبك بيحبه عند أبو سمرة حبيبك عند كورنيش النيل و أمري إلى الله ...

ففقز قلبي فرحًا .. و غردت عصافير بطني شادية إن صح أن للبطن عصافير كما يقولون .. و بأعلى صوت أصدرت ترنيمتي المعتادة ..

مداااااد .. مدد يا رب من غير عدد .. مداااد ..

اكتملت الصلاة و وأتممناها على أكمل وجه ومن ثم غمزت لصاحبي ، ففهم فورًا المقصود من وراء هذه الغمزة وابتسم قليلاً ثم بسط راحتيه يدعو الله أن يهدي كافة البشر ويعينهم ويرفق بهم ... ولجنا للخارج بعد مصافحات مع أهل

الله و خاصته ، من امتلكوا أفئدة رقيقة كأفئدة الطير ، وفي الطريق لأبي سمرة لم ينفذ معين الحب بل ازداد حبًا بمجاورة صديقي و بالعزومة الآتية ، ولكني لمحتُ صديقي يسير معي بجسده أما روحه فهي هائمة في عالم آخر ، فتوددتُ إليه وألقيتُ عليه نكتة جديدة و النكتة هي في الأصل إحدى مكونات الشخصية المصرية فلا يرفضها أحدٌ أبدًا .

فبادر صديقي بالحكي وحكى لي قصته التي حفظتها تمامًا من كثرة تكرارها ولكني لا أملُ من سماعها و أتركُ صديقي يحكي كما يشاء ، أعيره كامل إهتمامي وكأنها المرة الأولى التي أسمعها منه .

صديقي ضيع في الأوهام عمره ، انصهر قلبه وتلاشت نفسه وكابد إرهاصات أحزانه وحده ، عاش جل عمره في الخليج يكابد من أجل أبنائه و زوجته كي يحفظ لهم حياة كريمة ، كبر الأولاد و كبر هو أيضًا و ضاق الخليج به ذرعًا ، و قذفه في يم مصر بعدما امتصه لحمًا و عظمًا ، فلما رست قلوعه في مصر لم يجد في بيته مرسى ، الأولاد عاملوه بقسوةٍ شديدةٍ وصلت إلى الحد الذي نهره ابنه الأكبر قائلاً له ما الذي أتى بك إلى هنا ؟

نحن لا نعرف منك إلا اسمًا و لم نرك إلا زائرًا ثقيلاً كل بضعة أعوام .

ولمَّا جف معين الأموال هجرته زوجته و قالت إنه أتى بالفقر في جعبته و أمرته بالبحث عن سفر مرة أخرى ... ذهبت الأموال و ذهب معها الحب و الحياء .. خسر كل شيء ..

فلاذ صديقي بأولياء الله يعيش معهم و بهم .. يحكى قصته للجميع .. يبكى كلما هزه الحنين إلى العمر الضائع هباءا لم يجنى منه سوى الهجران ..

ومنذ عرفت صديقي ، أصبح واحدًا منا ، مجذوب مثلنا وسعد أيما سعادة حينما أبلغته بهذا اللقب وتسائل عن المعنى فلم أجبه أنا بقدر ما آبته الأيام الحلوة و الليالي البيضاء التي هبت نسائمها عليه منذ ولج داخل بوتقتنا ..

فاستقر في يقينه .. أنه مجذوب .. للحب مجذوب ، لأهل الله مجذوب ، للدنيا التي تعمر آخرته مجذوب .

obeikan.com

القصة الثالثة: على هامش الثورة

السماء ملبدة بصقيع يناير ، والثلج يبدو كمعطف فراء أبيض يكسو السحائب المتقطعة المتناثرة في صفحة السماء الواسعة ، الهواء رقيق هادئ تتهادى أوراق الشجر على وقع أقدامه الكسولة ، ليس هناك ثمة إنسان يتوقع أن يعكر مزاج هذا الجو الغارق في الأحلام شيئًا ، جو يبدو جميل برغم الشتاء و الثلج فهناك شمس تشرق على استحياء و هواء مفعم بالهدوء محمل بعبير الورود ينثرها على وجوه العباد مستقبلاً العام الجديد ، هكذا تبدو بشارات يناير من كل عام ، و ها هي زفرة العشق الأولى لغرة يناير لعام ٢٠١٠ ..

الثامنة صباحًا ، يجلس الأستاذ حسين مجاهد في ميدان عبدالمنعم رياض و تحديدًا في محل عمله وهو أوتوبيس ٢٧ ، نعم فإن حسين التحق منذ أربعة أعوام بالعمل في هيئة النقل العام و منذ ذاك اليوم وهو يقضي عمله في أوتوبيس ينتقل بين الخط هذا و ذاك دون أن يبدي اعتراضًا فهكذا دأبت روحه على الرضى و الاستسلام فلم يشأ أن يصطنع مشكلة واحدة أو يزعج زملائه أو رؤسائه منه .. دأب على العمل منكبًا على أكل عيشه ، تعلم كثيرًا جدًا من خلال النقاش الدؤوب و الاستماع المستمر للناس فركاب الأوتوبيس هم عينة عشوائية تؤخذ بشكل يومي من طينة المجتمع ، يجتمع بداخله الموظف و العاطل المثقف و الجاهل ، الإيجابي و السلبي ، الطبيب و المريض ، الشريف و اللص ، المرأة و الرجل ، إن شئنا فلنقل أن الأوتوبيس حقًا هو ترمومتر للمجتمع .. أطرق السمع للكافة و عرف وفهم ما استعصى عليه معرفته أثناء دراسته في الجامعة .. !

نعم فإن حسين جامعي درس في كلية الآداب قسم التاريخ ، حصل على تقدير جيد ومع ذلك لم يجد عملاً مناسبًا فأتهمه الأقربون بالغباء فما كان يجب عليه دراسة التاريخ فهذا ليس زمان التاريخ بل زمان الحاضر الذى يصنع و يؤرخ

تاريخًا جديدًا ، فإن مهنة التعليم امتهنت و تلخصت في قدرة المدرس على العطاء أكثر في الدروس الخصوصية و حصد وجمع أموال ونهب أولياء الأمور فتحول من مُعلم إلى مَعلم أو فهلوي و باتت العلوم سبوبة .. وهذا ما يستعصى على واحد مثل حسين ، و زاد الطين بلل تخصصه الغير مرغوب فيه .. فوض أمره لله و ترك مجاله و عمل في كثير من الأعمال الحرفية فلم يتقن منها شيئًا ، حتى التحق بهذه الوظيفة " كمسري " في هيئة النقل العام بعد توصية من أحد الجيران العاملين في الهيئة و نصحه بعدم ذكر مؤهله الأخير و أن يقدم الأوراق بشهادة الثانوية العامة ليتمكن من الفوز بالوظيفة التي تكفل له الحياة الكريمة على حد تعبيره ، فرضخ لذلك مقتنعًا برأيه لأنه على الأقل هذا هو المتاح ...

ورث حسين عن أبيه شقة في حي الوايلي بشارع الترعة في الطابق الثاني مكونة من غرفتين و حمام صغير و مطبخ يتسع قليلاً .. كما أنه ورث عن أمه ملامحه فامتاز ببشرة خمرية و عينين واسعتين سوداويين و حاجب رقيق و أنف بها انحنائه بسيطة وشعر ناعم ينسدل للوراء وقوام ممشوق ، ضاقت شقته عليه بعد وفاة أمه بعد التحاقه بالعمل بعام واحد فمكث عامًا كاملاً وحيدًا نصحه الجيران و الأصدقاء بضرورة الزواج و ألحوا عليه ولحسن حظه وجود شقة لديه لا ينازعه فيها أحد ،

هكذا جرت الأمور سريعًا ، أتت المبادرة من جاره الأستاذ رجب عبدالعزيز جاره الذي يسكن في الطابق الثالث المدير بهيئة النقل العام و الذي لعب دور الوساطة كي يلحق حسين بعمله الحالي ، جلس معه الأستاذ رجب وبدون مقدمات قال له لدينا مثل شعبي يقول " أخطب لبنتك ولا تخطب لابنك " ، حقيقة إن الأمثال الشعبية لعلم حقيقي لا يأتيه إلا ذو حظ عظيم ، فيذكره في الزمان و المكان المناسب فيكون خير فاتحة و تمهيد للحديث ، كان للمثل وقع عظيم فقد كسر حاجز الجمود و شعر حسين أنه أمام أب حقيقي إنسان محترم

و ابنته سمرا يعرفها فهي على قدر من الجمال و هي خلوقة مهذبة و أنها حقًا لأسرة رائعة ناهيك عن أنه يحمل جميل الأستاذ رجب في عنقه ..

تزوج حسين مجاهد من سمرا ..

فكان زواجًا منضبطًا متفهمًا ، وإن لم تدب روح الحب في قلبه أبان فترة الخطوبة فقد أتت سريعًا بعد الزواج فأخذه الحب من تلابيبه و تربعت سمرا على عرش قلبه ، وإن حب ما بعد الزواج لهو حب حقيقي لا رياء فيه وهو متأصل و منضبط أكثر من غيره إذ أنه يرتكز على أرض صلبة وليست هناك صلابة توطد العلاقة و تؤصلها أكثر من الزواج ..

سمراء الاسم بيضاء الوجه مشرقة المحيا دائمة البسمة طيبة القلب ، حمد الله على أن رزقه بها بعد والدته فكانت هي كل شئ ، ووكل لها كل شئ في حياته ، كانت تختار له حتى ملابسه و حذائه و كان يعطيها المرتب ويحتفظ ببعض الجنيهات له و هي تتولى تدبير المنزل فكانت الخمسمائة جنيه المرتب توزع بدقة و تدبر لتكفي حتى انتهاء الشهر ،مر عامان من الزواج ثم جاء الحمل الذي انتظراه طويلاً ، تسعة أشهر قضاها في انتظار و شوق لمولوده .. و بات يحلمان له بغد مشرق و من ثم أنخرطوا فى شراء ملابس جديدة لإستقبال الضيف الجديد ...

سمعته ذات يوم يناجى ربه في صلاته رباه طفل جميل بلون الورد سيهب على عشنا الجميل فيزيدنا حبًا فوق حبنا بارك لنا فيه يارب و احفظه لي هو و أمه وجنبنا كل سوء .. فأمنته ..

انتابه بعض القلق رغم الرضى الغارق فيه حتى قمة رأسه فمن أين سيكفيه مصروفات المعيشة و المرتب بالكاد يكفيه هو وزوجته ، وتذكر أنه في يوم من الأيام أتى بورقة و قلم و عكف على حساب أدنى متطلبات البيت الشهرية وكتب أدنى كمية من كل شئ مثلا كيلو لحم واحد في الشهر و هكذا فوجد أنه

سيحتاج إلى أكثر من سبعمائة جنيه أى ما يزيد على مرتبه بمئتي جنيه ، يا للهول الذي يعيش فيه ، فأطلقها مدوية بأنها ماشية بالبركة ككل شئ في هذه البلد فالطرق غير آدمية إلى أنها بالبركة ماشية و تؤدى الغرض بل إن البلد نفسها في كل قطاعاتها ماشية بالبركة ..

صعد سائق الأتوبيس عم حسن متولي لكرسيه و أدار محرك الأتوبيس ولحقه العامل بكوب الشاي الخاص به ومن ثم انطلق إلى شارع رمسيس في طريقه المحدد له و الذي ينتهي بمطار القاهرة الجوي ،

على حين غرة أتت مكالمة فجائية لحسين فكان المتصل حماه الأستاذ رجب أخبره أن زوجته سمرا تعبت فجأة و يبدو أنه معاد الولادة و أنهم الآن في مستشفي القصر العيني ، ذهل حسين و انقبض صدره و شعر برغبة في البكاء بدون سبب ، جري كالمجنون إلى عم حسن متولي السائق الخمسيني وكأنه يستغيث به زوجتي بالمستشفي يا عم حسن ، فربت الرجل على كتفه و قال له لا تنزعج بني ، بل يجب عليك أن تفرح كثيرًا فبعد قليل سيأتي إلى الدنيا مولودًا جميلًا مزيجًا طيبًا من صورة أمه و أبيه ، عم قليل ستشعر بنوع جديد من السعادة لم يكن بمقدورك التعرف عليها فيما سبق .. سيتعلق في قلبك أمل جديد وسيعمق بداخلك إيمان جديد بأن على هذه الأرض ما يستحق الحياة و البنون هما الدليل القاطع على ذلك .

انتهى الحديث بالقرب من مسجد الفتح بميدان رمسيس انزلق حسين للشارع و أخذ يعدو مثل صبي صغير يجري بالشارع ، لا يأبه بإشارة المرور و العربات المارة ..إلى أن وصل للناحية الأخرى بوسط شارع الجلاء و منه استقل أوتوبيس آخر مارًا بالقصر العيني في إتجاهه لميدان الجيزة فكان السائق و الكمسري أصدقاء مهنة فتسامر معهم قليلاً حتى وصل لباب القصر ، هرع كالمجنون للداخل ، دقائق وكان على رأس القوم ، وصل إليهم في قسم الإستقبال .. فاستبق الباب والأستاذ رجب والد سمرا و زوجته السيدة عائشة و

معهم عبدالله الأخ الأكبر لسمرا وهو أخيها الوحيد غير متزوج ، وجد سمرا طريحة الفراش غارقة في العرق تلتقط أنفاسها بصعوبة بالغة وأمها تروح لها الهواء بجرنال قديم بيدها ، الخلائق موزعين فوق الأسرة و في الطرقات و منهم من يفترش الأرض على رغم إفتقارها للنظافة ؛ فالمكان أشبه بحظيرة حيوانات على أكثر تقدير ولكن لتكدس الألم بداخلها وإرتفاع صوت الآهات و الصراخ المكتوم و البكاء المنسدل دون مواربة و الدموع المسكوبة حزنًا استحال المكان إلى سلخانة كبيرة ، سلخانة للآدميين في قلب القاهرة .. سأل عن طبيب أو ممرض أو أحد ينقذ هذه التي تأن أمامهم و قال لحماته لما لا يأخذونها لمكان الولادة ، فقالت له إنها في الشهر الثامن ولم تبلغ التاسع بعد و يبدو أن هذا تعب ما ألم بها لا تعرف ماهيته و أنهم ذهبوا للطبيب المتابع لها في الوايلي فأحالهم للقصر العيني و مذ أن حطت رحالهم هنا وهي تزداد سوءًا ولا يسأل فينا أحد .. وكلما سألنا يقولون انتظروا الطبيب النباطشي قادم بعد قليل ..

سأل و صرخ و احتج بل وشتم وهي ليست عادته ، لكن الوضع جد مأساوي يخرج الحليم من حلمه و ينطق الأخرس بأفظع الشتائم و ألعنها سباب .. جاء الطبيب إذا به شاب صغير ومعه ممرضتان تمران معه ، فحص سمرا فحصًا خارجيًا سريعًا و طرح بعض الأسئلة المكررة عليها ، منذ متى تشعرين بالألم ؟ آخر تحليل للأنيميا ؟ إلخ .

طلب الطبيب تحليل دم لها ، فوجئ بالممرضة تطلب منه الذهاب لأقرب معمل تحليل وشراء أنابيب فارغة لحفظ الدم صدم من عدم وجود شئ تافه مثل هذا في مستشفى بهذا الحجم .. المهم جرى مهرولاً للخارج قاطعًا المسافة الطويلة من داخل قسم الإستقبال مرورًا بالطرقات الطويلة و الأبواب الضخمة المتعددة ثم الكوبري وصولاً إلى شارع القصر العيني لشراء الأنابيب الفارغة اشترى أربعة أنابيب و عاد لاهثًا يلجمه العرق لجمًا ، وضع الأنابيب في يد الممرضة الغليظة فذهبت لسمرا التي ساءت حالتها وبدت أنفاسها تعلو بصوت يدعو

للقلق و بدت و كأنها تفقد الوعي مصفرة الوجه و العينين و اكتست شفتاها بزرقة مقيتة ، سحبت الدماء منها بواسطة الممرضة الغليظة القلب و الشكل بدون أن تبدي سمرا حراك سوى أنين مكتوم و آهات متقطعة .. علت أنفاسها بشكل ملحوظ هذه المرة فجرى حسين وجذب الطبيب متوسلاً إليه فاتى معه بدم بارد و قال يجب أن تحصل على كيس من الدم لكي يسيطر على حالة الأنيميا الواضحة لديها .. فكتب له ورقة ليصرف من بنك الدم كيس الدماء المطابق لفصيلتها ، ذهب لبنك الدم ، اعقبه الممرض هناك بضرورة أن يتم إحتجازها بشكل رسمي في المستشفى فقال له احجزوها إذًا لا مشكلة لدي .. فاردف إذا لابد أن تذهب للقصر الفرنساوي بشارع القصر العيني لجلب ملف لها كي يتم حجزها .. فانطلق من فوره للقصر الفرنساوي قاطعًا نفس المسافة الماضية و التي تقارب الخمسمائة متر تقريبًا ، ودخل غرفة هناك بالأسفل و انتظر الموظف حتى أتى .. ثم طلب منه الملف .

فأعطاه ملف ورقي هو ليس بالملف ولا بالشئ الذى يستحق أن يحرم المريض من حقه في العلاج لأجله .. أمسك به وقال للموظف أهذا هوالملف ؟ هذا هو الذي قطعت خمسمائة متر جريًا لأجله .. هذا الذى يحول بين أن تأخذ زوجتي حقها في العلاج ؟ ورقة فقيرة مطبقة نصفين من النوع الردئ تسمونه ملف و تلزمون الناس به ؟ لما لا يكون هذا بالمكان الذي يحتاجون إليه ؟ هناك ... قال الموظف أنا عبد المأمور .. فسبه حسين و سب المأمور الذى يعبده هذا و كل مأمور يعبده أمثال هؤلاء .. ومسك الملف يكاد يعتصره بيده و جري همه الوحيد انقاذ زوجته وصل لبنك الدم و أخذ يجادل و ينتظر مع الرجل إلى أن انتهى الأمر إلى أنه لا يوجد دم نفس فصيلتها متوفر الآن ؟

يبدو أنها إسطوانة مكررة .. فسبه حسين و بصق على وجهه و هم بالإشتباك معه و انفعل انفعالاً شديدًا و هاج هياجًا فظيعًا حتى خاف منه الموظف و انزوى و تدخل الناس فتركهم وهو يقذفهم بأغلظ الشتائم و يدعو عليهم وعلى

المأمور الذي يعبدونه هم أيضًا .. لابد أن لهم مأمورًا يعبدونه هم كما هو الحال بالبلد برمتها ..فلكل موظف في البلد مأمور يعبده .

هرول لحبيبته باكيًا من شدة الخذلان و قلة الحيلة يحتضن سمرا ، تمنى لو كان لها من القدرة لأن تقوم بما اعتادت عليه بوضع يدها الرقيقة الحانية على رأسه فتتخلل أصابعها شعره فتهون عليه .. ولكنها قد فقدت الوعي ، ثم أفاقت بعد دقيقتين ولكنها في دنيا أخرى ، دنيا ممتلئة بالآلام مخضبة بالأوجاع تقرع الآهات طبولها و يخيم عليها سحائب الأحزان ..

قال للواقفون يجب أن أنتشلها من هذا المكان بأسرع وقت .. فنادى على الممرضة الغليظة و سألها أريد تصريح بالخروج كي أنصرف من هنا لأي مستشفى أخرى يتوفر بها عناية لو مكثت هنا أكثر من ذلك فستموت مني .. فقالت له بمنتهى البرود و اللامبالاة " الأمر أبسط من هذا يمكنك أن تأخذها و ترحل الآن إن أردت " ... هكذا بدون تصاريح ..

حملها ورحل و الأهل يجرون أذيال الخيبة و الحزن ورائه ، تفاجئ وهو يخرج من الباب بشاب يبدو في العشرين من عمره ملقى على الأرض يصرخ بشدة من الألم قابضًا على بطنه فكان جسده يغلق فوهة الباب المفضي إلى الجحيم بالداخل .. فحاول حسين وحماه طلب النجدة له كي ينقذَه أحدهم وكي يفتحَ لهم المجال للخروج ولكن لم يرد أحد ومر طبيبًا و معه ممرضتان و عامل مرا بسرعة من أمامهم فمروا من فوق هذا المريض الذى يتمزق ألمًا فتبعاه هاربين يتملكهم الرعب و المقت و الفزع ..!

استقلا تاكسي لمستشفى الدمرداش و هناك الحقوهم بقسم النساء .. كانت الساعة السادسة مساءًا ، اخذوها الأطباء و جلسوا هم بالخارج مع الجالسين المنتظرين ذويهم ، فنظام المستشفى هناك لا يسمح بدخول أحد غير المريضة فقط .. و الأهل يجلسون في الشارع منتظرين ..

حاولوا إسعافها بكل الطرق الممكنة بالمستشفى ... و عندما احتاجوا دماء صاحوا في الميكروفون يطلبون سرعة التبرع فهرع الناس للتبرع و توصلوا لفصيلة دمها و تم إعطائها دماء جديدة .. استقرت الحالة بعد معاناة ... أو هكذا بدت الأمور .

الساعة العاشرة مساءًا تم النداء على حسين فذهب للبوابة و سمح له بالدخول هو و حماه فقد تم استدعائهم لمكتب كبير الأطباء ، كان رجلا طيبًا في غاية الذوق و الأدب بدا يتحدث معهم بهدوء و قال أريد أن أقاضي المقصرين في حق المريضة بداية من الطبيب المعالج و كل من أوصلها لهذه الحالة السيئة فقد دخلت المستشفى وهي تعاني من حالة أنيميا حادة و توقف في عمل الكلى و مشاكل كبيرة في الكبد كان يمكن تفادي هذا ولكن قدر الله نافذ وكلها أسباب ..

ولما بدوا غير متفهمين لما يريد قوله ، فقالها لهم صراحة " تم إنقاذ الجنين بنوتة أشبه بالقمر ولكن الأم لم نتمكن من إنقاذها .. البقاء لله وحده " ..

بكى الأب بكاءًا شديدًا و انتحب تمامًا كما ينتحب الأطفال ، بينما إنهار حسين تمامًا و صمتت حواسه بينما بركان من الغضب يغلي بداخله فلا وقت لهذا البركان لكي يعبر عن وجوده فيبدو السطح هادئ لا حياة فيه بينما درجة الغليان في باطنه تصهر الحديد ..

انسحب حسين تاركًا هذه الأهوال دون إرادة منه فتسلل جسده منسحبًا من ساحة الحزن.. قرار الهروب و الإنزواء اتى من قوة أخرى خفية لا يعرفها .. لفظه شيء ما بداخله لخارج تلك الهوة التي سقط فيها منذ أن هاتفه حماه .. خرس فيه كل شيء ، استبد الحزن به و فاق الألم حدًا أكبر من حد البكاء فكانت هذه مرحلة من مراحل الحزن تسمى بالحزن الصامت .. يحدث ذلك حين يتعاظم الحزن بداخل الإنسان و يستبد به .. شعر حسين بشيء ما يجثم على صدره و سرى حريقه يتغلغل بداخله يعصف بيرقات الأمل و يقص أصابعه التي دأبت على التشبث بحبائل الآمال حتى الواهن منها .. طفق الحزن

يدمي قلبه ويعتصره .. طاش لبه وفقد رشده و لم يكن قادرًا على أن ينبس بكلمة ولا حتى نفس واحد .. صامت كجزع شجرة يتيم تخلت عنه أغصانه و أوراقه بقلب صحراء واسعة في يوم قائظ .. بل و غارق في الصمت كمن دب الموت في جيفته ، موت حقيقي ادركه وهو حي.. لا يسمع حسيسه وكأنه مات وهو واقف ، لم يعد يهوى الكلام ولا يستهويه سماع أي صوت حول مداره .. عجز عن قول كلمة آه واحدة مجردة .. ولعل هذا ما ضاعف من حزنه و يأسه أكثر حين عجز عن التعبير عن حزنه وقتئذ .. تمنى لو استطاع الإنخراط في البكاء و النحيب مثل حماه .. عزله حزنه عن العالم بأسره .. وأغلق اليوم أبوابه .. ماتت سمرا و اختفى حسين . فإلى أين ذهب !!

بحث عنه الأهل كثيرًا فلم يعثروا له على أثر!

أيام و أسابيع تلتها أشهر ولم يقتف أحد أثره .. حتى زملائه جابوا الأرض بحثًا عنه ولكن بلا فائدة تذكر ..

مر عام بأكمله

اثنا عشر شهرًا مرت على إختفاء حسين حتى قاربت ذكراه على الذوبان في بحر الأيام ، مر العام بحلوه و مره فذاق بعض الناس حلاوة في أيام معدودات من العام بينما القم آخرون مرارة حدث واحد كان كفيلاً بتدميرهم تدميرًا كليًا ..

انبثقت شمس يناير لعام ٢٠١١ تزف ريح جديدة في بني مصر شيئًا غريبًا و شمسًا جديدة تتلألأ وكأنه البزوغ الأول لها فدقت أشعتها طبول اليقظة في الوجود بأسره ، و انتشرت أشعتها تملأ الكون كله و تبحث عن الكسالى و النائمين و المتعبين و المنهكة أجسادهم و أرواحهم ..

أخذت الشمس في الأنبعاث حتى ضبطت نائم غارق في سباته بقلب حديقة عامة صغيرة بالقرب من إحدى مداخل ميدان التحرير ، فكان هو بعينه حسين مجاهد ولا أحد سواه ، من تعثر على العباد إيجاده بعد مرور عام على الحادثة

الأليمة عثرت عليه رسل الشمس ، بدا أشعث أغبر شاحب الوجه يمتلك لحية كثيفة متسخة و شعر كثيف أيضًا و قذر ممتلئ بالأتربة و الأوساخ ، يرتدى خرق بالية قميص ممزق قذر و بنطال متآكل جسده يكاد يسقط منه لشدة نحافته ، تغير كليًا .

لما لا وهو ربيب الشارع منذ عام ، ومن يومها وهو لم يغتسل ولم يتعرف على أى من أوجه النظافة .. بدا كهؤلاء الذين يملؤون شوارع القاهرة فيقتاتون كسيرات خبز قليلة يشحذونها من الناس أو يقفون أمام المطاعم يتوسلون بأعينهم فقط للناس كي يهبونهم ما تبق منهم أو ينبشون أكوام القمامة يبحثون عن قطعة فاكهة ينامون أسفل الكباري و المباني المهجورة و الأزقة و الحدائق العامة وربما بوسط الشارع يقضون حاجاتهم و يسيرون في الأرض على غير هدى ، هؤلاء الذين ينعتونهم الناس بالمجانين ، صار حسين واحدًا منهم ..

وهذا دليل على ضرورة تنحى هذا الفهم الخاطئ لهؤلاء وضرورة إعادة النظر في مسمى المجانين الذي اطلق على هؤلاء التعساء ، فمن يدري ماهية الحكايات التي تجري خلف الغرف المغلقة لملايين البشر نحن لا نر الصورة إلا من منظورنا الواحد الضيق ، ولا نقرأ إلا الجمل المقتضبة لكن التفاصيل لا نحب الغوص في أعماقها ولا التطرق لأصل كل الحكايات ..

عاش المسكين متخبطًا في غيابات أفكاره يصارع مع عقله ما حدث لا يريد تصديق ما جرى و يلقى على نفسه أسئلة دائمة مثلا كيف جرى ما جرى ولما جرى و لما لم يفعل أي من الأطباء شيئًا ؟ ..

و لماذا ذاق كل هذا العذاب في المستشفى الأولى ؟ ..

و ما عسى يكون حدث لذاك الشاب الذى كان يصارع الآلام وهو مستلق على الأرض يطلب النجدة فلا يجيبه أحد و الناس تمر من فوقه في وضع أقل من وضع الحيوانات ؟ هل مات على أبواب المستشفى لأنه لم يكن معه بطاقة

شخصية أو أى ضامن له كما كانوا يقولوا وقتها ليتهربوا منه .. ما قيمة الحياة ؟ .. و ما قيمته هو شخصيًا ..

ما هو اذا إلا مجرد نكرة شئ تافه ، ابتلاء القى به على الأرض .. أو إنسان له من الحظ السئ ما يكفي لإلقائه على مثل هذه البقعة من الكون ؟ فقد ثقته في نفسه وبات ينظر لها بشئ من الإحتقار وكأنه لا يزيد عن كونه بصقة ملتصقة بالأرض إلى حين أن يكنسها أحدهم بمكنسته أو تمتصها شمس فترحل على أكفها ، أو على أحسن حال روح هائمة ما كان لها الحياة من الأساس .. غارق في بحور اليأس .. بدا يتذكر و يراجع اعتراضات البعض من الركاب فيما سبق أثناء عمله كمسري في هيئة النقل العام و تناولهم للشأن العام ..

لماذا رضخ للعمل ككمسري وتنازل بل و تنكر لشهادته الجامعية فبدلاً من الإفتخار بها فر منها و أنكرها وكأنها عار عليه .. أي سذاجة هذه التي مُنى بها !

سبح في بحر عميق من الأسئلة ضحل بالأحداث و دار عامًا كاملاً يبحث عن إجابة واحدة شافية .. فلم يجد .. فآثر النوم في الشارع و مصادقة الحشائش و الأشجار المنبثقة في الحدائق و على جانبي الطرقات و ربما الحيوانات ، فأصبح لا فرقة بينه و بين كلاب الشارع .. فهما ينامان و يأكلان و يقضيان حاجتهما معًا في الشارع .. فما الفارق إذًا بينه و بين كلب شارع ضال ؟

كانت هذه إحدى الأسئلة الوليدة التي طافت بعقله إبان وضعه الجديد ...

لم يجد خلاصًا لحالته هذه و ربما استكان لما آل إليه حظه .. ووجد في عدم الإنخراط مع الناس راحة تامة .. لم يخاطب أحدًا بكلمة واحدة طيلة عام بأكمله حتى ظن أنه نسي الكلام .. وأصبح نطقه ثقيلاً على لسانه .. فلم يرد حتى على من يشتمونه من الأطفال و ينعتونه بالمجنون و يسبونه بأفظع الشتائم و أغلظها كانت الأمور تتطور أحيانًا في مثل هاتيك المهاترات فيقدم الأطفال على رميه

بالحجارة فيولى هاربًا و يترك لهم المكان دون أن يبدى حراكًا و ذات يوم القمه شقيًا من هؤلاء حجرًا فأصاب حاجبه الأيسر فنزف دماءًا كثيرة وتورم فتركه دون مداواة فقط أخذ يمسح الدم بيده ليوقفه من الانزلاق داخل عينه و أخذ يبكي و ينتحب كالأطفال من شدة الألم الذي شعر به جراء أصطدام الحجر بحاجبه ومكث أسبوعين متورم حتى خف الورم تدريجيًا و بقيت آثار الدماء على وجهه الشاحب حتى جففتها الشمس وصارت قشور من الدماء المتجمع ثم تساقط مع مرور الوقت .. والتئم جرحه الصغير لكن الجرح الأكبر في أعماق القلب لم تصل إليه شمسًا أخرى تداويه ..

أي حزن و أي إنكسار هذا الذي اصابك يا ربيب الجامعة .. بدا أنه في حاجة ماسة لمن يمد له يد العون ولكن لابد لهذه اليد أن تكون قوية و أن تمد بشكل مختلف .. بدا وكأنه الوطن برمته الذى يحتاج مثله هذه اليد لتنتشله من براثن الظلم و غياهب الجهل و التخلف الذى أضحى وكأنه قدرًا أرغم عليه رغمًا ، وعلى عكس المتوقع حدث ذلك فجأة فتمخضت من كومة الأحزان إبتسامة مشرقة .. و مدت يد من خلال الموج لإنتشال ملايين الغرقى و في مقدمتهم الغارق الأكبر حسين مجاهد ..

الخامس و العشرون من يناير لعام ٢٠١١ هبت نسائم شئ جديد يحرك الماء الآسن في بوتقة الخزي .. فتمزقت شرنقة الجبن و زال حاجز الخوف بعدما تصدع جدار الرعب الواهن .. أتى زوار ملائكيون إلى حسين في ميدان التحرير ، لهم صفات ملائكية ، حقا كانوا حالمين كالملائكة و قلوبهم نقية بريئة كالأطفال و عقولهم أكبر من أعمارهم بمئة عام أو يزيد .. لن يمنعهم شئ عن بلوغ هدفهم المنشود هذا الهدف الذى تمثل في بادئ الأمر في قدرتهم فقط على التجمع والوقوف جنبًا إلى جنب ..

حدجهم حسين بقوة .. فلأول مرة شئ يخطفه و يجذبه من ياقة قميصه المهترء ليفيقه من سباته .. تمامًا كما خطف الملايين ليجذبهم حوله ، كوكب جديد بزغ

في سماء القاهرة ملزما أبصار و أفئدة العالم على أن يدوروا في مداره .. شئ ما يرد إلى الحيارى ضالتهم .. شئ ما دفعه للإنغماس وسط هؤلاء فكل ما فيه يريد سماعهم يرغب في الإنصات لهم ..

من أي سماء يا إلهي هب هؤلاء على أرضنا ؟ ومن يدفعهم للأمام هكذا ؟ وما الدافع ؟

نفر منه بعضهم في بداية الأمر لبشاعة منظره ولكن احتوه بعد ذلك لما لامسوه فيه من طيبة و مسكنة .. فوقف معهم شاهدًا على الأحداث مستعيدًا حياته التي سلبت .. مسترجعًا نفسه .. مستنطقًا لسانه الذي بدا وكأنه نسي الكلمات.. مستكشفًا شئ ما بداخله .. مبرزًا جوانب أخرى في حياته .. جوانب لم يكن يعرف عنها شيئًا .

مر اليوم الأول و الثاني بمناوشات أغلبها طفيفة مع الشرطة.. قاسمهم أكلهم البسيط و أستمتع بأغانيهم الثورية ورقص قلبه في صدره طربًا ، استخرجت أغاني التراث فأعجبه فكرة النبش في تراث الماضي ، فلدينا حقًا تراث كالذهب يحتاج بين الحين والآخر أن نستخرجه من مكمنه ونعيد تلميعه كي يظل محتفظًا ببريقه المستحق ومن ثم يتناقل جميلاً براقًا للأجيال المتعاقبة .. افترش معهم أرض الميدان فلم يكن هذا بشيء غريب عليه فهو أعلم منهم به .. فبدا وكأنه يعلمهم كيف يسترقون إلى مكان منبسط و ماذا يضعون أسفل رؤوسهم كمتكأ لهم .. ثم بدا لسانه يعود للكلام مرة أخرى بعدما ظن به الناس أنه أبكم .. فنطق أول ما نطق ب كلمة "حرية ".. ذلك حدث في اليوم الثالث وتحديدًا في مساء يوم السابع و العشرون من يناير عندما كثر أعداد المتظاهرين و انتشرت كاميرات التلفاز تنقل صورًا حية وانطلقت كلمة حرية من الصدور تشق عنان السماء ، فانطقت حتى الحجر و الشجر و الدواب فتم استنطاق لسان هذا التعس .. و انتزعت نزعًا من داخل صدره فمرت عنوة على حبائل صوته ثم لفظها للخارج لسانه الأبكم ...

وكأنه يعيش على أطراف أرض الأحلام ، وجد أخيرا من يأنس بصحبتهم ويطرب بسماعهم ، وجد نفسه في الناس و قرأ في أعينهم " ما زال أمامك فرصة لإستئناف العيش مرة أخرى ".. حقًا إن طبيعة الإنسان تحن دائمًا إلى الألفة و تسعد بالأنس و تستمد قوتها من الناس ..

الثامن و العشرون من يناير ، اجتاحت جحافل الغضب الأرض البيضاء و بثت سمومها و عم الهرج و ازدادت وتيرة الحدة و الاقتتال ، وسقطت الدماء الذكية على الأرض المقدسة وتاه الجميع و عم التخبط ، إلى أن أصدر الله حكمه و انقشعت الظلمة و استحكم الميدان قبضته مرة أخرى و مر اليوم بمآسيه الكبيرة تذوب مرارة الكأس بعد الظفر بالفوز المبين ، فكتب النصر صفحة جديدة من صفحات النضال ، و تصاعدت المطالب..

و بدأ حسين في الشعور بالنضج أكثر و الاندماج و العودة السريعة لعالم البشر ، فخلع عنه عباءة اللامبالاة و بدأ يبالي بكل شيء فنظر لنفسه لأول مرة في المرآة و شعر بإشمئزاز ، فبدل من حاله بعض الشيء ، كان هناك حلاق الثورة بالمجان ، جلس حسين أمامه و طالبه بأن ينفض عنه كل هذا ، دقائق و كان ما تراكم فوق رأس و وجه حسين من شعر يتناثر على الأرض ... فبدا أكثر وسامة و نظافة ، ولتكتمل الصورة اتى له أحد أصدقاء الميدان و يدعى نور الدين بقميص و بنطال جديدين فأهداهم له ثم أهداه آخر حذاء أنيق .. فبدا و كأنه بعث للحياة من جديد..

ما أجمل أن يبعث الإنسان بعثًا جديدًا يبدأ حياة جديدة .. يعيش بعدما فقد الأمل في العيش .. ينفخ في جيفته روح جديدة ترسله للحياة مرة أخرى .. هذا تحديدًا ما حدث مع حسين ... بدأ يتعاون مع الشباب أكثر و يتحدث و قابل زملاء من الجامعة لم يكن على صلة قوية بهم لكن اليوم و الآن الصلة في الميدان تقارب صلة الأخوة الحقيقية و الدم الواحد ...

استرد البائس عافيته مثلما استرد نفسه .. و بدأ يدرك ما هو فيه الآن ..

في ليلة من ذات الليالي البيضاء جاء إلى الميدان مطرب شاب كفيف وبدأ يطرب الجميع مستعينًا بعوده و بأصوات الشباب حوله فغنى لهم أغان ثورية تلهب حماسهم وتثبت أقدامهم ..

فغنى أغنية قديمة هي من كلمات أحمد فؤاد نجم لم يكن حسين يسمع عنها من قبل يقول فيها " يا سمرا ياللي الهوا رماني ، و تهت فيكي و ضاع زماني ، يحدفني بحرك لبر تاني ، يجبني شوقي أو تندهيلي " .. انجذب حسين لوقع تلك الكلمات وكأنها تخاطبه هو دون غيره ، بل و تلخص حكايته فطالب المطرب بأن يعيد هذا الكوبليه مرات عديدة ،

سمرا .. هل هناك في هذا الكون سمراء أخرى غير سمرائه !! .. سأل عن هذا فأجابه إبراهيم أبو النجا طالب الإعلام الذي يشارك الجموع منذ الإنطلاقة الأولى " إن مصر في العهد الأول كانت تسمى كيميت أي بمعنى الأرض السمراء لأنها كانت أرض خصبة للزراعة يعطف النيل عليها بطميه الذي يشد عضد زراعتها المتنوعة ..

بكى إلى الحد الذي ظن أنه فقد السيطرة على نفسه وأنه لا يستطيع التوقف عن البكاء متى أراد ذلك .. انهمرت دموعه فجأة فطفق الجمع يروح عنه ويهدئ من روعه أراد أن يقول شيئًا فلم يستطع أن يتلفظ بكلمة واحدة يتيمة ليبرر دموعه المسكوبة على أرض الميدان ، أراد أن يقول لهم دعوا دموعي تنهمر كما تشاء فهي لن تضر أحد ، كما أن هذه الدموع مختزنة منذ عام خلف جدار من الحزن المعتق ، وعلا صوت نحيبه و زاد تشنجه وبدا صوت البكاء متشنجًا مجروحًا وكأنه صوت قلبه يتمزق إربا إربا ... مكث على هذه الحال حتى سقط مغشيًا عليه ، ثاب إلى رشده في الصباح ، فأقبل بوجه غير وجه أمس ، طفق يخاطب الناس و يحثهم على الثبات على موقفهم ، يسترجع علوم الجامعة و يستلهم من أحاديث ركاب الأوتوبيس وتحليلاتهم السياسية و شكاياتهم المستمرة من كل شئ في البلد .. إن سمرائهم جميعًا في حاجة ماسة

للعناية و للوقوف بجانبها و تلبية ندائها حتى يتسنى لنا وضعها على خريطة العالم الأفضل التي كانت ذات يوم هي ثم يأتي العالم كله من بعدها ، ظل هكذا شعلة حماس و شعاع أمل براق في وسط الميدان ، حتى كتب للثورة النصر ، و عمت الفرحة البلاد فجبت الفرحة ما كان قبلها ، تمامًا كما فعلت الثورة ... دماءًا جديدة بثتها لذة الإنتصار في حناياه ، ما أجمل أن يحقق الإنسان هدفًا غاليًا يضع من خلاله بصمته التي تؤكد أنه مر ذات يوم من خلال هذا العالم ، فإن القبور مليئة بملايين التافهين ..

عاد في ليلة النصر إلى حي الوايلي قاصدًا بيته الذي هجره منذ عام ، يطفح أملاً ويفيض عزيمة ، آملا الحفاظ على مولوده الجديد ، ثمرة الحب الطاهر ، ونتاج كفاح مضني و صبر أيوبي ..

عزم على أن يُربِّي الأمل وينفض عن قلبه بواعث اليأس ، يعتنى جيدًا بمولود سمرا الجديد وفاءًا لسمرا نفسها فلكم أعطت ووهبت دون كلل أو ملل، ولن تسامحه سمرا إن فرط في حق المولود الجديد أكثر من هذا ..

فإن لسمرا عليه ألف حق و حق .. وها قد حانت ساعة الوفاء ..

القصة الرابعة: سيدة القرية

تلألأت أشعة الشمس في كبد السماء وبثت وميضها الساحر للأرض نافذًا لجسد كل من عليها ، وباحت بكل أسرارها ، تطوق الأرض بأذرعها ، مرسلة أشعتها تفقئ عين الكسول و تقيم للحركة أودها فتعم على إثرها البركة الخالدة.. تدفع الجميع للعمل ، والعمل للصعيدي أمل ممتد في تعلقه بالأرض السمراء .. متشبث بالورقة الخضراء ، و نتاجه حصاد المزروع كل بأمر ربه وقتما يشاء،

تنتشر جموع الحصادين اليوم في قرية َبحر اليمامة .. يعملون بصبر و تؤدة فهذا موسم حصاد القمح ، يد بيد تساعدهم و تلهب حماسهم بل و تتحداهم ابنة التاسعة عشر صاحبة الطول الفارع و القوام الممشوق و بشرتها السمراء و تقاسيم وجهها الذي ينضح مصرية خالصة ،

إنها بهية بنت حسين الطواب ، بهية منذ ولادتها وهي أعجوبة فاقت كل المقاييس ، لا تكل و لا تمل من العمل ، أتقنت كل الأعمال ابتداءًا من أعمال المنزل من طبخ وغسل و تنظيف و امتد صنيعها إلى الأرض ، أرض أبيها الذي مات قبل أن تتمم العاشرة والذي سمعته ذات يوم يناجي ربه بأن يهبه ولدًا يحمل اسمه و يكفيه معايرة أخيه جعفر الذي لا يترك مناسبة إلا و يتفاخر بأن له إثنين من الأولاد بينما أخيه الأصغر حسين عاقرًا إلا عن إنجاب البنات ... أما آن لهذه الطبائع أن تندثر !! ..

منذ يومها و بهية تضمر في نفسها العداء لعمها جعفر و هو أهلٌ لذاك فإن جعفر امرؤ فيه جاهلية تبدت في طبائعه و حماقته وعصبيته فكان لا يسلم من غلظته حتى أهل بيته ، و اتخذت بهية عهدًا على نفسها بأن تثبت للكافة أنها أفضل من ألف ولد . ..

مر زمن و حسين الطواب يكابد الأمرين في ذهابه للمستشفى الأميري في مدينة سوهاج لعمل غسيل الكلى لعدم توافر أي نوع من الرعاية الصحية له فيضطر لأن يجر زوجته المسكينة و يذهب قبل بزوغ الفجر كي يصل مبكرًا لسوهاج ومن ثم يحجز له مكانًا في الطابور اليومي للمرضى ثم يتمكن من عمل غسيل الكلى الدوري ، فيعود منهكًا أوهن من خيط عنكبوت ذائب متقطع يتكئ على زوجته المسكينة ، بدأ عوده في الذبول شيئًا فشيئًا ، واصطبغت بشرته بصفرة مقيتة ، بدأ ينضح مرضًا إلى الحد الذي تمنى له كثيرون الموت شفقة ورحمة به ...

وذات يوم حزين خفت نجم حسين الطواب للأبد ، كان قد مات المسكين ألف مرة قبل أن يدركه الموت الحقيقي الذى منحه الراحة الأبدية ، بكاه الكافة لقد كان حقًا طيب القلب و عزاه الجميع لأنه كعادة الصعيد مع من مات ولا ولد له ، فعزاه رجال القرية جميعًا ، ووقف جعفر حزينًا مكلوم الفؤاد حزنًا على أخيه الوحيد الذي لم يمهله القدر حتى ينجب ولدًا يحمل اسمه و يقف في يوم كهذا يأخذ عزاء والده .. وقالها بملئ فيه إن حزني على أخي حزنين الأول لوفاته و الثاني لعدم إنجابه الولد فلو كان له ولد يقف له في يوم كهذا لهان الأمر كثيرًا ..

مرت الأيام ثقيلة ينوء الرجال عن حملها ، بهية باتت هي من تعول أمها التي تفطر قلبها حزنًا على زوجها وآثرت العيش داخل البيت فلم تشأ تغادره متشحة بالسواد حافية القدم تاركة جسدها للزمن ينهكه وللحزن يأكل من سوأته.. بينما أختها زينب أرادت أن تساعد بهية في العمل ولكن بهية رفضت بشدة و أصرت على أن تكمل زينب تعليمها ، بينما بهية عرفت طريقها فلا سبيل لديها إلا العمل ، فقط مزيدًا من العمل فلديها خمسة أفدنة من الأرض لو حرصت عليها و أتقنت زراعتها لكفتها الحاجة هي و أهل بيتها ، باتت هي من تعمل و تروي الأرض كلما أحتاجت للري و تجيد تقسيم الأرض بفكر داهية ، ففي بادئ الأمر إعتمدت على النصح و المشورة لجيرانها و للحاج محمد زكي صديق والدها الذى لم يبخل عليها بإبداء النصائح في شتي أمورها خاصة المتعلق

منها بالزراعة و أساليبها وأوقات الري المناسبة و ما إلى ذلك .. و أتت ثمار تلك النصائح سريعا فكانت زراعاتها تعجب الزراع .. و باتت يضرب بها المثل .. كانت تؤدي أعمالها بحرفية فلاح أفنى عمره في الأرض و بصبر رجل حكيم خبر الدهر جيدا وبعزيمة صلبة كالفولاذ صلدة كالصخر لا تنثني أمام الدهر بل وتنثنى العراقيل كلها مجتمعة تحت قدميها .. فدان لها النجاح بعدما تشبثت بالأسباب .. حقًا هي امرأة بألف رجل ..

أبناء جعفر أكل الحقد قلوبهم و باتوا يكيدوا لها خاصة مع تعنيف الوالد لهم قائلاً انظروا إلى أرضكم فهي تستحق الرثاء مقارنة بأرض بهية .. بنت ولكنها أدهى من رجلين ، و ألقى على مسامعهم شتائم جمًا وأمثلة شعبية فكثيرًا ما قال لهم " جاتها نيلة اللي عايزة خلف " ...

إن رجب و عبدالله أبناء جعفر انقسموا فأصبح عبدالله لا يبال بالدنيا ويعكف على ملذاته و دنياه الشخصية التي تتجلى في صحبته و ما يجلبه له الصحاب من ملذات فانغمس في الشهوات بعدما فقد هو الأمل في نفسه أن يجاري بهية في أعمال الأرض .. بينما رجب بدا حقًا فتيًا ذو قوة وبأس يمتاز بصلابة حقيقية لكنه لا يملك عقل نافذ كعقل بهية ، لكنه صبور إلى أبعد حد .. يعمل ليل نهار في أرضه لكن دون علم ودون عقل واع .. ورث رجب خصال كثيرة من عمه حسين في مقدمتها طيبة القلب.. وكان دائمًا ما يذكر عمه بالخير خاصة في وجود بهية فإن أرضهما متلاصقين .. ذات مرة جلس يمدح عمه ويقول لبهية رحمة الله على عمي كان طيبًا وماهرًا في عمله فقد كان يزن الأشياء براحة يده فيصدقه الميزان ، ولما كانت بهية أكثر فطنة منه ففهمت مشاعره وما يخفيه و أنه جد متعلق بها ..

حاولت التملص منه مرارًا ، لانها تعلم ما هي موكلة به وأن الزواج و خاصة من ابن عمها قد يقف حائلاً كبيرًا بينها و بين ما تريد ، لن تستطع مباشرة أعمالها ، و سيتحكم الزوج بطبيعة الحال في مصائر أسرتها التي هي على

رأسها .. الأمر خطير ولا يحتمل المجازفة ، رفضت صراحة هذه العلاقة .. ولكن رجب عاهدها أنه متفهم مما تخاف منه جيدًا و أنه لن يقف في طريقها أبدًا ولو على حساب نفسه .. تكالب عليها الجميع أمها من ناحية و عمها و زوجة عمها من ناحية أخرى حتى صديق والدها ألح عليها و قال وافقي فهذا هو الرأي الصواب .. لعبت أهازيج الحب برأسها ودق ناقوس القلب للفطرة التي تبغيها كل فتاة ..

وافقت بهية بعد إلحاح ولكن بشروط أملتها على الجميع وكان أولها عدم التدخل في شأن أرضها وعدم منعها من ممارسة حقها في متابعة الأرض و توسعتها .. فأقسم لها رجب بأن لا مساس مطلقًا بهذا الحق الخاص بها فلها ما تشاء ولكن دون الإخلال بوظيفتها كزوجة..

تمت الخطبة في بيت المرحوم حسين الطواب ، اجتمع الأهل و المدعوين من أهل البلد و الجيران و على رأسهم الحاج محمد زكي صديق المرحوم و شيخ البلد السيد جمال عبدربه و كذلك عمدة بحر اليمامة الحاج عبدالسميع أبو الروس ، و بارك الجميع الزيجة ، و تمت الخطبة بأفضل ما يكون ، و بارك جعفر الزيجة بقلب يفيض بالحب والرضا ..

وعاشت بهية ما يقرب من ستة أشهر في نعيم الحب الخالد .. ولم يمانعها رجب في القيام بعملها بل طفق يساعدها كلما احتاجت له و في خلال هذه الفترة أعجب بها أكثر و تأكد أنه وفق للإختيار الأمثل .. وبدت الأمور هادئة نسبيًا وبدأ التجهيز للزواج الذي يتبقى عليه ستة أشهر أخرى .. إلى أن وقع حادث جلل بدا هذا وقتما تسارعت الأحداث على عكس المعتاد في القرية الهادئة ، فشب نزاع بين شاب يدعى عوض عبدالرسول من نفس عائلة حسين و جعفر الطواب وهو يعد ابن عم غير شقيق لرجب الذي صادف مروره أثناء نشوب الخلاف بين عوض و حزين حسنين من عائلة بدران واحتدم الخلاف بسبب تعنت الاثنين فأرضهما متلاصقان وكل منهما يتهم الآخر بالجور على

حقه .. نمى الخلاف وتصاعد ، صحيح أن الناس اجتمعوا و استطاعوا التفرقة بينهم في تلك اللحظة لكن الشياطين نفثت سمومها ونفخ الخباصين في الكير واشتعلت النار بينهم واحتدم الخلاف ..

وفي يوم قائظ أتفق واجتمع ست من شباب عائلة بدران وعلى رأسهم حزين حسنين و أخيه إسماعيل بعصيهم للفتك بعوض ولحسن الحظ تسرب الخبر إلى رجب وهو يعمل في أرضه ، فهرع شاهرًا نبوته ، وطفق يطوى الأرض طيًا بقدميه للحاق بهم قبل أن يفتكوا بإبن عمه حتى وصل إلى قرب المكان الذى خبره الرسول بأنهم متربصون بعوض هناك ، انتظر قليلاً خلف شجرة مورقة على حافة ترعة متوسطة الحجم ، ثم أتى المتربصون ممسك كل منهم بتلابيب شومته يتوعدون بتأديب عوض و في هذه اللحظة كان عوض قد وصل إلى ساحة المعركة .. أتى هادئًا يمتطي حماره الأبيض و بيده فأسه و عصاه ثم لمحهم ولكن لم يتقهقهر فترجل عن حماره وترك حماره يشق صفهم وأمسك بيمناه عصاه و بيسراه الفأس ، فوجه له حزين سبابًا لاذعًا ونعته بالتافه الذي لا عائلة له .. فبادره عوض السباب بل و سبهم جميعًا قائلاً إن الأصول الصعيدية تقضي بأن يتصارع رجل لرجل ولكني لا أراكم مجتمعين تزنون وزن رجل واحد في ميزان الشرف و الرجولة.. هلموا يا نسوان بلدتنا .

شعروا أن الإهانة أقوى من أن تهضمها النفس وأن الرد يجب أن يكون عمليًا .. تريث رجب الذي يفصل بينه و بينهم مياه الترعة وهو يراقب الحديث يتربص باللحظة المواتية لينقض عليهم متلبسين بالتربص لابن عمه فتصدمهم المفاجأة ..

في لحظة واحدة ريثما يشق حمار عوض صفهم فأنقسموا نصفين ، ثلاث عن يمينه و ثلاث عن يساره قفز رجب للناحية الأخرى وقبيل أن يصل للأرض كان فأس عوض يهشم رأس أحدهم بعدما أطاح به في الهواء فاصطدم برأس الضحية فوقع غارقًا في دمه يتألم أشد الألم ، تجمعت المصائب فوق رؤوس

الستة أشقياء ففزعهم فأس عوض وأصاب أحدهم و فوجئوا برجب يمتطي الهواء قافزًا بجسارة الترعة التي تزيد عرضها على الأربعة متر ويصبح في المواجهة ، و رجب له قوة عضلية و جسمانية هائلة وكأنه فتوة جاء من عصر شجعان الحارات وكأنه حقيقة نفحة من رجال الماضى الأشداء ، وما كان لهم أن يتقهقهروا فاحتدم الصراع ،استطاع رجب أن ينقض عليهم جميعًا ضربًا بنبوته مخترقًا جمعهم ، فهوت الضرب الأولى على رأس حزين فانفجرت الدماء منها وسقط لاهثًا متألمًا ، و انضم عوض لرجب ليبق اثنين في وجه أربعة ظلوا يقتتلوا و يتضاربوا بالعصى هنيهة ثم ضرب عوض أحدهم فهوى للأرض جريحًا ، وبقي الثلاثة فقط يحاولون صد الضربات المتتالية فقال رجب كفى لعبًا يا نسوان .. تلقفوا وعدكم يا أنذال فلم تصمد عصيهم أمام ضربات نبوت رجب الجبار وسقطوا واحدًا تلو الآخر حتى أن الأخير وهو إسماعيل شقيق حزين القى بنفسه في الترعة هربًا لكن نابوت رجب لحق به فشج رأسه فسقط في الترعة غارقًا في دمه ، انتشر الخبر في القرية كالنار في الهشيم وسارع أهل الخير في البلد و الكبار قبل الصغار للحاق بهم و الحيلولة بين المتخاصمين .. هكذا هي العادة في الصعيد الناس يلقون بأنفسهم وسط المتخاصمين غير عابئين بما يحدث لهم المهم أن لا يتسع دائرة الشجار و أن لا يسقط قتيل فيعم الخراب على البلدة بأكملها ... وكم من خراب أغلق بيوت عائلات بأكملها ..

حمل المصابين الستة لمداواتهم ، جمع رجب عصيهم جميعًا و قام بتسريبها مع عبدالله أخيه الذي جاء مع الناس .. ولأخذ العصي دلالة لا يقف عليها إلا الصعيدي .. فلو خير الرجل بين الموت وبين أخذ عصاه لأختار الموت دون تردد .. ولكن لم يكن رجال بدران في حالة وعي كامل بما يجري إثر ما حدث ..

انقضت الحكاية و صارت طرفة و حكاية سهرت بحر اليمامة عليها شهرًا كاملاً .. و تغنوا برجب الذي استطاع أن يفتك بهم جميعًا بمعاونة عوض

الهزيل .. هذا جد رجل داهية و ذو قوة وبأس شديد .. هنيئًا لبهية التي ضحك لها الزمان أخيرًا ووجدت في رجب عوضًا لها عما سلف من أحزان .. وأيقنت أنها اختارت الرجل المناسب الذي سيحميها بل ويحمي عائلتها و يقيم للعائلة أودها من جديد الذي اندثر برحيل جدهما فؤاد الطواب الذي كان يهابه الجميع ولم يستطع كلا من أبيها حسين و عمها جعفر أن يملأ الفراغ الذي تركه فكان أبيها طيبا لا يبالي . بينما عمها أخرق لا حكمة لديه ..

العوض في رجب ..

انقضي شهرين على العراك الأخير و استطاع أخيرًا أهل الصلح وفي مقدمتهم عبدالسميع أبو الروس العمدة و جمال عبدربه شيخ البلد وبضعة نفر من قرى مجاورة لبحر اليمامة أن يمهدوا للصلح .. وانعقد في ديوان العمدة مجلس عرفي اجتمع فيه ممثلين من عائلة الطواب و عائلة بدران و القضاة العرفيين و كبار رجال البلد وتم الحكم بالتراضي بأن يرد آل الطواب عصي شباب آل بدران و تعاهدا على الصلح .. وأقسموا جميعًا على ذلك ..

ولكنها العادة القديمة المتوارثة عاود الخباصين نشاطهم و بث سمومهم في نفوس شباب عائلة بدران و قيل لهم إنهم صاروا أضحوكة للبلد بأكملها بل و امتدت الفضيحة للبلدان المجاورة .. عار لا يجبه إلا الدم ... الدم !!

كلمة الدم كم هي سهلة النطق .. صعبة التنفيذ .. وخيمة العواقب ..

لاحت في الأفق نسائم الخيانة، ولعب الشيطان بالرؤوس ودارت كؤوس فارغة تعلن ظمأها للدم .. أحكم القدر قبضته و أصدر سيف الغدر كلمته ..

في يوم حزين ينذر بالشؤم ريثما يعمل رجب في أرضه .. مر عليه بضعة نفر وقبل أن ينتبه وجهوا له فوهة بنادقهم .. سقط المسكين نافذا لجسده أربع رصاصات أغرقته في دمه فأسلم الروح لبارئها في الحال ، و هرب الخونة فاريين ، هزت الطلقات مسامع البلد وتسرب الخبر كالنار في الهشيم تلقفته

الآذان غير مصدقة وفروا من مضاجعهم وكأنه يوم الحشر دقائق معدودات كانت كفيلة بأن تقف البلد بأكملها فوق جثة الضحية الغارق في دمائه ، سقط جعفر و زوجته سنية فوق جثة ابنهم يبكون منوحين وجائت بهية تلهث من الفزع و خلفها زينب أختها وأمها و طفقوا يلطمون الوجوه بأكفهم و يهيلون التراب فوق الرؤوس .. بينما عبدالله جاء متأخرًا فقد كان نائمًا فهرع إليه أحد الجيران و قال له أخيك رجب قتل ففزع من نومه و فر لاهثًا في ذيل الناس بملابس نومه حافيًا يطوي الأرض طيًا حتى أدرك الجمع وهو يسأل أين رجب ؟ .. أين أخي ؟ .. هل أصيب .

يهزو و يصرخ من الأعماق أخي .. أخي ! .. سندي ! .. ظهري !

وارتمى على جثة أخيه يبكيه بحرقة وينتحب إنتحابًا يهز أوتاد الجبال .. ينادي جثة ابن أبيه قم يا أخي ! تعالى معي لنقض عليهم جميعًا .. يجذبه بشدة من ياقة جلبابه قلت لك قم كفي نومًا فلن يهربوا من العقاب .. هيا يا أخي ننتقم ممن قتلوك !! .. قم يا أخي !

الناس تكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله يحاولون جره بعيدًا لكن دون فائدة ظل هكذا متشدقًا بجثة أخيه .. لم يستطع أحد تهدئته .. المشهد برمته بدا كربلائيًا .. يبعث على المقت وينذر بالخراب ..

لم يترك عبدالله جثة أخيه حتى وري التراب ..

أسدل اليوم ستائره و غشيت ظلمة الليل الجميع قبل أوانه و كأنه اكتفي بما حدث في رحاب نهاره من هموم وحزن فبدا متعبًا هو الآخر مثقلاً بالحماقات .... أتى البوليس .. أخذت الأقوال .. وكانت النتيجة المعتادة .. لا أحد يتهم أحد .

دفن رجب .. دون عزاء .. فالطبع لا عزاء لقتيل قبل أن يؤخذ بثأره .. حتى البوليس يعرف ذلك جيدًا وربما يتساهل في رد الثأر فرأس في رأس تنتهي المشكلة حينئذ ويمكنه فرض سيطرته على الأمور ..

سقط جعفر أسيرًا للحزن فشُلَّت أركانه و بات ينازع الروح ولم تكن زوجته بحال أفضل منه ..

ذهب جعفر وتبعته زوجته في مفارقة عجيبة و غير متوقعة سقطا الإثنان حزنًا على فلذة الكبد ، فكانت الصدمة شديدة على قلب بهية .. فهكذا و بدون سابق إنذار وبدون ترتيب مسبق يهزمك الموت في عزيز لديك فينكأ جرحًا في القلب لم يلتئم بعد .. ما أقسى لحظات الفراق و أشدها لوعة و مرارة و ألمًا على القلوب ..

قبر الإثنان في أسبوع واحد ... بيت كان ينتظر منه إنبعاث مجدًا للعائلة يغلق و ينقضي نحبه في بضعة أيام قليلة .. أغلق للأبد ..!

الحزن يعم القلوب جميعها .. صار السخط نباتًا شيطانيًا نبتت بذرته و ترعرع عوده في الأرض الطيبة ..

هام عبدالله منكبًا على وجهه في البلد أهدت إليه بهية بندقية جدها الذي ورثها أبيه عنه وهي بندقية قوية ذات روحين ومعها عدة طلقات و قالت له إن لم تستطع شفاء الغليل فأنا لها .. هربت عائلة بدران للقرى المجاورة .. مر شهرًا كاملاً ..

استطاعت بهية أن تمرر خبرًا بأن عبدالله ترك البلد .. وتعمدت أن يبلغ الخبر لعائلة بدران في مكامنهم .. فاطمأن بعض أهالي بدران وبدأوا يرجعون إلى بيوتهم شيئًا فشيئًا حتى عادوا جميعًا ..اذ شعروا بالأمان وساعد في تنامي هذا الإحساس خبر هروب عبدالله كما أن جعفر قبر هو الآخر فلا خوف عليهم إذ أن شوكة العائلة انكسرت فالباقي رعاع لا قيمة لهم ..

وحانت اللحظة التي تخيرتها بهية .. و انفرد عبدالله بحزين و أخيه إسماعيل و ابن عمهم الذي شاركهم في قتل رجب فأطلق عبدالله النار عليهم فقتل حزين بطلقتين نافذتين لسويداء القلب ، وقبل أن يملئ خزينة بندقيته أطلق عليه أحدهم طلقة أصابت كتفه فسقط ،، ولمثل هذه اللحظة كانت تصر بهية على أن تكون بالقرب منه لعلمها بأنهم يتجولون مسلحين وبسرعة خاطفة و في اللحظة المناسبة زجت بهية بنفسها لقلب المشهد وبدت شاهرة سلاحها الذي تحصلت عليه بمساعدة عوض ابن عمها و قتلت الإثنين بطلقتين متتاليتين .. و اصدرت آهة من الأعماق تنم عن الإرتياح الكبير .. و ساعدت عبدالله على النهوض .. و فرا في الزراعات وصولا لنهر النيل الذي يحد البلد من الناحية الشرقية و سلمته لعوض الذي حمله على ظهر قاربه الصغير و أبحر به تمهيدًا لتهريبه بعدما أدى مهمته ...

تدخلت الشرطة بشدة هذه المرة ففي أقل من شهرين وقع أربعة قتلى .. انتشرت قوات الشرطة في أرجاء البلدة و أرغم قائدها الجميع على الجلوس و إنهاء الخلاف بأى ثمن فكفي من سقط وإلا فسوف تنهال قوات التخريب على البلد دكًا .. و أصدر الحكم العرفي قرارًا بعدم عودة عبدالله الذي لا يعلم له مكان إلى البلدة مرة أخرى و الذي أعتبر أنه مات وقضى بأن تشتري عائلة بدران دار و غيط آل جعفر الطواب .. ولكن بهية كانت أكثر دهاء من الجميع فقد سبقتهم بمعاونة الحاج محمد بإتمام عقد شراء بينها و بين عبدالله الذي باع لها الأرض و الدار .. وقالت أنا أشتريت منه الأرض و الدار قبل شهر من وقوع الحادث فقد كان بحاجة إلى المال وأنا دفعت كل ما لدي وأقترضت من الحاج محمد نصف المبلغ فصدق الرجل على كلامها وكذلك شيخ البلد الذي وقع على العقد وزكى كلامهما .. فعم الغيظ والحنق وهم كبار عائلة بدران بالانصراف إلا أن قائد الشرطة نهرهم بشدة .. و انتهى الخلاف وقتئذ .. كان من الضروري لحبك هذه الرواية شهادة شيخ البلد عليها كما أنه من حسن الحظ أن

الشيخ كان صاحب ذمة مطاطية يسهل شرائها بالمال وهذا كل ما كانت تريده بهية..

باتت بهية أشد قوة وقتها و عزيمة بعد مرورها بتلك المصاعب و المشكلات .. خرجت أقوى مما سبق ..

لكنها وحيدة الآن .. و ترائى أمام عينيها مستقبل موحش ملئ طرقاته بالأشواك لا سبيل أمامها سوى توخي الحذر طالما فرض عليها خوض غمار المعركة وحيدة.. إما أن تكون بهية بحق أو أن تنطفئ إلى الأبد .. و يغمرها هي و عائلتها النسيان !!

العائلة !!

يا له من مصطلح يحتاج إلى إعادة نظر ، هذا المصطلح ينم عن قوة و بأس شديد أما عائلتها الآن فهي في حال يرثى لها متشرذمين ضائعين تنهكهم الحاجة و تقصم الفاقة ظهرهم .. بل إن بعد كل ما حدث ما زال بضعة نفر يعملون مأجورين في أراضي عائلة بدران ... إلا أن بهية أصرت على المضي قدمًا فأخذت على عاتقها إعادة البناء ..

فكانت الخطوة الأولى لها أن ضمت دارها و دار عمها جعفر المتلاصقان ليصبحا بناية واحدة كبيرة فأعادت ترميم المهشم منها وشيدت الباقي فبدت أكثر بهاءً و زهوًا من دار الحاج محمد بدران نفسه وهو من أكابر عائلة بدران ...

كما ضمت الأراضي فاتسعت مساحتها و اشترت من جيرانها فدانين فصارت تزرع ما يقارب الإثنا عشر فدان كاملة و استعملت عمال عائلتها جميعًا بعدما جمعتهم و نهرتهم على ذهابهم للعمل عند عائلة بدران .. فاذعنوا لها إذعاناً كاملاً .. فاغدقت عليهم الخيرات من أموال و غذاء و حسن معاملة .. و صارت تشجعهم على العمل بل و أن يصبحوا ملاكًا لا خدمًا .. فشاركتهم في

بهائم و أغنام عديدة.. كانت تشتري لكل واحد منهم بقرة أو أغنامًا كل على حسب قدرته في الاعتناء و العمل الجاد و تقتسم الربح معهم بالنصف .. فعم الخير و ظهرت النعمة على عائلة الطواب .. وتبدلت جلودهم و صارت هي كبيرتهم بفعل الواقع .. ليس لأنها فقط أغناهم و لكن لأنها حقيقة بدت أكثر منهم حكمة و دهاء ..

حاول آل بدران التضييق عليهم فلم يفلحوا .. قطعوا المياه عن أرضها فلجأت لما لم يكن متعارف عليه في القرى وقتها فاستقدمت طرومبة مياه تعمل بماكينة ضخمة من القاهرة و أقدم مهندسوا الشركة لتركيبها و لم يفهم الناس ما هذا الذي يحدث وقتها ولم تخبرهم حتى انتهى المهندسون و العمال من أعمالهم و جرت المياه و غمرت أرضها جميعًا .. و كان من بين المهندسين من نصحوها بزراعة النباتات الطبية فإن جزءًا كبيرًا من أرضها يصلح لذلك وهو ما سيدر عليها أموالاً ضخمة .. كما أنه شيئًا غير مألوف فوافقت وقامت بتهيئة جزءًا من الأرض لهذه الزراعات ..

وجرت أنهارًا من الخير تجري من تحت أقدام بهية و عائلتها .. أصبح للعائلة شأن بفضل بهية وبفضل العائلة المستحدث قواها.. صاروا رجالاً بفضل امرأة .. هكذا تحدث الصعيد بأكمله و ذاع صيت بهية حتى لقبت عائلة الطواب بعائلة بهية ..

وعلى عكس المتوارث في صعيد مصر فلم يبدوا ذلك عيبًا وقتها بل من دواع الفخر للجميع حتى أفراد العائلة .. العائلة التي تطاولت في البنيان بعدما كان غالبيتهم يعيش بداخل عشة شيدت من سعف نخل وحطب أشجار .. و ارتدوا الجلباب النظيف الذي عمد إلى خياط العمدة نفسه في البندر أن يخيطه لهم بعدما كانوا يرفلون في ملابس لها من القذارة و البلي ما يؤلم النفس .. و ترحموا على أيامًا لم تعرف أبدانهم شيئًا يدعى ملابس داخلية .. و انتعلوا أحذية من جلود طبيعية بعدما كنست أقدامهم العارية طرقات القرية..

أكل الحقد قلوب عائلة بدران بعدما أفل نجمهم و باتوا يكتفون بمشاهدة صعود نجم بهية و عائلتها و صاروا يكيدون لها و استدعوا ذكريات الماضي و الثأر و الدم المراق .. و قالوا لا فائدة من ردع العائلة إلا بقتل بهية نفسها .. ولكنهم ترددوا فهل يقتلون امرأة .. فهذه ليست من شيم الصعيدي ... سيصبحون لعنة .. و ستنهشهم الألسنة .. وستذيبهم الأيام بذكريات سيئة .. كما أن عائلة بهية الآن صارت قوية و اشتروا أسلحة و صارت لهم علاقات قوية بكافة أهل البلد بعدما شاركوهم في شتى أنواع التجارة ... و كما أن بهية نفسها صارت لها علاقات مباشرة بأهل المال و السلطة في المحافظة ولا يمكن نسيان أنها تستضيف كبار رجالات السلطة إبان الإنتخابات وما شابه فيتسع بيتها لكافة الغرباء القادمون إلى البلد فيجدوا عندها الطعام و المتاع وحسن الضيافة ..

الحقيقة ليس هذا فقط ما كان يشغل بالهم .. بل إن حادثًا خطيرًا هز أركان البلد برمتها حدث منذ شهر واحد .. حدثا غير النظرة تمامًا التي ينظر بها أهل البلد بما فيها عائلة بدران نفسها إلى بهية .. بل و عائلة بهية أيضًا ..

في ليلة حالكة الظلام شديدة البرودة من أماسي الخريف حيث كان يسمع للهواء أزيز يرسل الرعب للقلوب ، تنطفئ على إثره نيران الموقد الذى يلتف حوله كل بيوت القرية .. سمع صوت عواء ذئب عالٍ جدًا .. ولما كانت البيوت ملاصقة للزراعات فكان صوت الذئب يسمع بشدة إلى الحد الذي يرسل الصغار إلى الإلتصاق بأمهم بحثا عن الآمان وهم يرتجفون .. تعالت الأصوات و تداخلت و بدا للمطرقين آذانهم بأنهم ذئبان لا ذئب واحد .. وصوتهم ينم عن أنهم في حالة عراك شديد .. فاخترقت المسامع صوت طلقة اندفعت محدثة صوتًا ضخمًا كالقنبلة ... انطلق الصوت للتو فصرخ أحد الذيبة لاختراق الطلقة جسده ثم تلت طلقة أخرى بدت أقوى لأنها لم تصب شيئًا بل إحتضنها الهواء المثلج فأحدثت صوت فرقعة هائلة و تعال صوت الذئب الثاني إلى الحد الذي انكمشت فيه القلوب و تملك الرعب من الرجال قبل النساء وانبعث من صدور الأطفال أنينًا مكتومًا ..ينم عن الرعب الكامن في الصدور ..

ثم طلقة ثالثة صاحبها صراخ من يسدد ممزوجًا بصوت الطلقة و صوت الذئب الذي سقط صريعًا يعوى عواءًا يبعث الرعب زخات زخات إلى قلوب البلد الذي لم يربط على قلوبها إلا إنبعاث آذان الفجر يشق عنان السماء و انطلق صوت الشيخ محمد عبدالمتجلي مؤذن المسجد الكبير يبعث في طيات صوته طمأنينةً و ثباتًا .. انقشعت الظلمة .. و تبدد الخوف مع شعاع الأمل الفجري الذي يبشر بنور شمس غجري قادم لا محال ..

لكن القادم الذي كان ينتظر و النور الذي أراد إنبعاثه أهل بحر اليمامة هو الوقوف على حقيقة ما جرى منذ قليل .. و صراخ الذيبة ما زال في آذانهم ..

إلى أن أجابهم حمار السيدة بهية نصف إجابة .. فاخترق الجموع حمارها الأسود الضخم الذي يشبه الخيل في علوه و شموخه و كبريائه .. فشق صفهم وكأنه قطعة ليل ألقي في جوف نهارهم الصابح .. يجر ورائه ذئبًا وحشيًا قتيلاً مربوطًا من ذيله تستقر في جمجمته طلقات بندقية .. تملكتهم الدهشة وأخرست ألسنتهم .. و نظروا لبعضهم البعض نظرة مفادها .. من فعل ذلك !

هنيهة و هبت نسائم بهية رأوها من بعيد امرأة تحمل بندقية فتملكهم الرعب فلكأنها جنية .. ولكن تبددت التساؤلات حالما وصل شبح تلك المرأة إلى الجموع فبدت هي بهية دون غيرها بحلتها السمراء ترفل في جلبابها الصعيدي و تربط عصبة سوداء من طرف شالها على رأسها و ممسكة بيمناها ذيل الذئب الثاني و بيسراها بندقيتها ذات الروحين .. ونظرت في خيلاء للمجتمعين من أهل البلد .. و بمنتهى الهدوء و جسارة الفتونة و بأس الرجال الأشداء قالت لهم هؤلاء ذئبان خيل لهم أن العبث بأرض بهية شيئًا سهلاً .. تركتهم مرة فظنوا في إمهالهم إهمالاً مني أو عدم قدرة على ردهم .. فكان لابد من تلقينهم درسًا قاسيًا و تأديبهم ..

ذهل الجميع و ألقي منذ اللحظة سهام الرعب في قلوب البلد و باتوا يحسبون لبهية ألف حساب .. وتناقلت الألسنة هذه الأسطورة الخالدة وأضافوا إليها كثيرًا

في حكيهم كل كما يشاء ، واستقر في ضمير الأغلبية أنها امرأة غير عادية ويبدو أيضًا أن لها أخلاء من الجن يساعدها على ما هي فيه ...

و زيادة في الرعب و إثباتًا للقوة ، أقبلت بهية على تحنيط الذئبان و وضعتهم فوق البيت على إرتفاع هائل بحيث يبدوا مرئيا لأهل البلد برمتها واحدًا عن اليمين و الآخر عن الشمال ..

هكذا دانت السعادة ل بهية بدوام القوة .. و صنعت من عائلتها رجالاً أشداء .. و بمرور الزمن و كرور الأيام تأصلت هذه القوة و تشعبت أكثر في باطن الأرض و صارت علاقاتها بأهل السلطة قوية فطوتهم تحت جناحها و لم يقدر حتى العمدة نفسه على تحديها بل آثر مجاراتها في كل ما تريده .. درءًا لشرها لو غضبت عليه ..

دار الزمان دورته .. عائلة بدران صارت وكأنها تحت الأرض .. باعوا أرضهم .. وبطبيعة الحال لم يكن أحد يجرؤ على شراء شئ يباع في القرية سوى بهية ، فامتلكت أكثر من نصف زمام بحر اليمامة ، و تخرجت زينب من كلية الطب كما أرادت و أصرت بهية على بلوغها كلية الطب دون غيرها و أغدقت عليها الأموال ولم تنس قريتها كما لم تنس معاناة أبيها عوض الطواب أثناء مرضه ، فشيدت أول مستشفى كبيرة في القرية واسمتها مستشفى بحر اليمامة و استقدمت أطباء و عكفت المستشفى على خدمة أهل القرية و كافة القرى المجاورة .. فأقدم عليها الجميع من كافة الأنحاء المجاورة حتى أهل البندر ... وتغير بذلك شكل بحر اليمامة فصارت أكثر تمدنًا و حركة و ادخلت بهية عدة صناعات وشيدت مصانع على أطراف القرية ثم تبرعت بقطعة أرض كبيرة بني عليها مدرسة حملت اسمها ، وباتت بحر اليمامة مقصدًا لكافة أنواع البشر ..

أصبح عوض عبدالرسول تاجرًا كبيرًا و ذراعًا يمنى لبهية ولما شعر بزهو نفسه حاول التقرب ذات مرة لبهية غرض أن تقبله زوجًا لها ، فنهرته وقالت

له أنسيت نفسك يا عوض هل صومي طيلة هذه الأعوام من أجل الإفطار على بصلة و بصلة هزيلة ذابلة ناكرة لأصلها مثلك .. أحمد ربك على ما وصلت إليه الآن ، الناس يحسدونك فهم في معتقدهم أنك حقًا ذراعي الأيمن ..

رفضت بهية كل محاولات التقرب إليها من كبار القوم في أهل قريتها و خارجها من أهل السلطة و المال .. رفضت الزواج و عكفت على خط اسمها بحروف من ذهب في وجدان الأجيال .. ففي نفس كل واحد ممن تقدم لها شيئًا بدا واضحًا وقرأت بهية الطمع في وجوههم جميعًا ..

تزوجت زينب من طبيب أتى للعمل في المستشفى فأقامت لهما بهية عرسًا صار حكاية تحكي لكل قروي في الأنحاء ، وحضره علية القوم و نحرت الذبائح و عم الفرح الجميع ... تزوجت زينب و سرعان ما أنجبت ولدًا اسمته عوض كرامة لأبيها و تودًا لبهية التي لولاها لما كان لها ولا لعائلتها شأن من الأساس ... ثم أنجبت بنتًا واسمتها بهية تيمنا بأختها و ازديادًا في القرب منها و عرفانًا بجميلها الذى لم تنسه لحظة واحدة حتى الدكتور عمر زوجها هو الآخر كان يكن لبهية كل الإحترام و التقدير لما فعلته من أجله ومن أجل زوجته وبما تغدقه على الأولاد من أموال و هدايا كثيرة .. إنها كما قال لزينب ذات يوم إن بهية تبدو حالة حقًا تستحق الدراسة ..

دارت الأيام وتغير وجه الدنيا ولم يبقى كل على حاله ، وتسرب القلق إلى نفس بهية حينما بدت أمارات الكبر عليها وظهر ذلك جليًا في صفحة وجهها فانكمشت البشرة النضرة و ذبل الوجه وحزنت لضياع العمر في صراعات ما كانت تتخيل الوقوع فيها أبدًا ..

جلست أمام المرآة الكبيرة في غرفة نومها الواسعة وخادمتها الأمينة سنية تمشط لها شعرها الليلي وتحاكيها

سألتها عن سر هذه الدموع المتلألئة في عينيها الجميلة ..

فأجابتها بأن الدموع لم تفارقها منذ أول تعارف بينهما وقد وقع ذلك منذ زمن طويل جدا، فهي ودمعاتها شيئًا واحدًا لم يستطع أحدهم مفارقة صاحبه أبدًا .

-لم يغلبك أحد من الرجال الأشداء فهل يغلبك دمعات خائبات، إنك لست سيدتي وحدي ولكنكي سيدة القرية جميعها .

-فأردفت قائلة في صوت منكسر حزين أنني لم أكن أطمح إلا في أن أكون سيدة بيتي ، بيت صغير بسيط هادئ و لقد ناشدني هذا الحلم كثيرًا فلقد رأيت الحلم نفسه عشرات المرات رأيتنى أكنس و أعيد ترتيب بيتي البسيط المبني بالطوب اللبن و يقع على إحدى جانبي الترعة الكبيرة والمياه تغمرها ثم أخرج لأراقب البط و الأوز الذي أربيه وهو يغطس و يعوم فيها و يلعب بشكل مضحك في المياه ويطلقون صيحاتهم العالية التي تدل على فرحة عامرة تغمر أفئدتهم ، ثم أذهب لأحضر لهم الطعام الذى أعددته بعناية وما أن يرونى أنثر فتات الطعام في الهواء ليرونها وهي تتساقط في الأطباق المعدة لهم إلا ويهرعون يتقافزون من المياه للخارج فيجتاحون المربع الذي أقف فيه ليضربوا مناقيرهم في كل طبق حولي وينقرون قدمي في رفق وكأنهم يلثمونها لالتقاط بعض الفتات المتناثر عليها .

-لقد عوضك الله بما هو أفضل و أبدلك خيرًا ، أنتِ فعلتي ما يعجز عن فعله الرجال يا سيدتي ..

=دعينى أخبرك سرًا فأنا غير سعيدة بما تحسبينه إنجازًا لقد كنت أطمح إلى حياة أكثر هدوءًا و أقل تشنجًا من كل هذا .. أعيش في جلباب أمي كما عاشت تستظل بظل زوجها لا تآبه بأحد أو تضع حسبانًا لشئ سوى بيتها و أبنتيها ... ولكن هناك من يوكل القدر إليه حياة غير عادية و يزج به إلى خضم حياة كانت أبعد ما تكون عن مخيلته .. في حين أن كل ما كان يروم إليه أن تبدو حياته عادية و تكمل عمرها في درب العاديين ، تنطوي على أوجاعها البسيطة الهادئة التي لا تعدو كلمة من زوجها تزعجها سويعات أو أن ابنها لم يحقق

درجات عليا في الإمتحانات ، وأن لا تندرج لمشكلات إلا التافه منها مثلا تتشاجر مع جارتها لأسباب تافهة .. وحزنها لأن بقرتها الوحيدة قد نضب اللبن في درتها ، ما كنت أرغب في هذه الحياة الجامدة البائسة التي كثيرًا ما أتنازل فيها عن أنوثتي لأبدو أمام الناس بكل هذه الرجولة بل و أكثر رجولة من أي واحد منهم .. ليس هناك أصعب على الأنثى شيئًا أكثر من تنازلها عن أنوثتها و فطرتها التي جبلت عليها فتمد يدها تشوه ما رانت عليه .

-الحياة أمامك لا تزال يا ست الكل .

- تقولين الحياة أمامي أي حياة هذه يا سنية .. ألا تدرين لقد اكتملت حلقة العمر الخامسة وماذا يتبقى للأنثى بعد الخمسون يا سنية ..

جففت أدمعها .. و هبت منتصبة عودها و طفقت تغسل وجهها و ألقت إبتسامة هادئة على سنية و أردفت قائلة ولكن نظرة واحدة على زينب أختي ، أقصد الدكتورة زينب تكفيني .. إن روحي تذوب عند النظر إلى أبناءها فلذة كبدي كل هذا ينسيني ما قد رحل من العمر و ضاع من الأمنيات في بحر الحياة ..

إن عوض الطواب الرجل المسكين الذى مات يصارع مرضه ويندب حظه لأن زوجته المسكينة لم تستطع إنجاب ولد يحمل اسمه .. من يعلمه الآن في قبره أن إحداهن صارت دكتورة كبيرة و تزوجت من دكتور مثلها و إن ابنة عوض الطواب الأخرى هي من ساعدت أختها لتصبح على ما هي عليه وهي من شيدت مستشفى كبير يخدم جميع أبناء بحر اليمامة و هي من صنعت من فتات القوم عائلة كبيرة ورفعت عنهم مذلة العبودية و العمل في أراضي الغير فأصبحوا ملاكًا يسودوا القوم.. و أصبحت هي سيدة بحر اليمامة..

القصة الخامسة: الأختيار

كعادة الزمان يوقع أحيانًا على عقود حزن من طرفين بل و يعمد على تفعيل بنودها وقتما شاء بدون إذن أو حتى علم أحد أطرافها .. وتصب المصائب فجأة على الضحية فتغلبه الحيرة وهو لا يدر أنها معدة له سلفًا.

في صبيحة يوم الأربعاء الثالث من أكتوبر لعام ٢٠١٥ وقعت حادثة أليمة .. من كان يصدق أن العربة التي كانت تعد لزفاف الغد باتت لا تصلح لشئ بعد تهشمها كليًا و ضياع ملامحها بعدما ظبطت محتضنة سور إحدى البنايات بشارع عثمان بن عفان بمصر الجديدة كانا العروسان في طريقهما لابتياع آخر احتياجاتهم لزفاف الغد .. كان كل شئ يهون لولا أن كان بداخل العربة المشئومة محمود و أماني .. هكذا صرح المستشار حسن عبدالمولى والد أماني .. بينما تمنت حفيظة شومان زوجته أن لو كانت هي بدلاً من ابنتها العروس أماني .. كل الكلمات الهازية والتي لا معني لها هي نابعة من صميم قلب يقطر حزنًا و يتجرع كأسًا مترعًا بالألام ..

الحزن بحر كبير يغرق فيه العقل و ينتحر في دواماته كل شئ يتسم بالمنطق .. يتكأ الأهل على الصبر و يتضرعان لله وحده أن ينقذ الأولاد .. كاد الآباء أن يجنوا .. اتى الضابط و أخذ أقوالهم و تبين أن الحادث ليس مدبرًا وأن ما حدث لا شبهة جنائية فيه .. و أن حظهما المشئوم قادهما لهذا المصير ..

عشرة أيام مرت وكأنها عشر سنين فكان الأستاذ محسن بيومي والد محمود يفترش الأرض يكاد يذهب عقله لولا أن ربط علي قلبه تمسكه بالدين فكان رجلاً متدينًا خلوقًا ، مدرسًا للتاريخ أفنى عمره يدرس تاريخًا للأجيال المتعاقبة في مدرسة الحسينية الثانوية بحي العباسية الذي شب في رحابه و التقي بسنية حسنين ابنة حسنين دكش الفوال و أحبها و تزوج منها زيجة هادئة كفلت له

الإستقرار و العيش الممزوج بدوافع الرضا لتنجب له ابنه الوحيد محمود .. فكان زهرة حبهم و ثمرة زواجهم .. إلى أن شب محمود و تدرج في المراحل التعليمية حتى التحق بالجامعة وتخرج من كلية الإعلام و عين معيدًا كما هو معتاد مع أكثر الطلاب تفوقًا و امتيازًا تعرف على أماني طالبة في كلية الإعلام وهو المعيد المجتهد المقدم على رسالة الدكتوراه ... مسحة الجمال تبدو واضحة للكافة على وجه أماني فهي ذات بشرة بيضاء صافية كالحليب و عينين سوداويتين تزين وجهها و أنف دقيق ملامح وجهها تقطر حلاوة و زاد أدبها الصورة جمالاً وبهاءًا تعلقت بمحمود منذ إنطلاقة العام الثاني احبت فيه طيبة قلبه و الثبات على المبدأ فكانت له مجموعة مبادئ غاية في النبل و الكبرياء كان يعترف بأن الجهد المبذول و الفكر الواعد هو وحده من يقف في وجه الظلم و المحسوبية و بالعلم وحده يناهض الفساد و يعالج أسبابه و مسبباته و نتائجه ... محمود شاب طموح ينتظره مستقبل واعد تبدى ذلك حتى في ملامح وجهه الجامدة بعض الشيء جبهة عريضة و أنف دقيق و عينان واسعتان و بشرة خمرية و قوام معتدل يزيد طوله عن أماني .. دبت أواصر المحبة بينهما فترعرعت زهرة الحب متشحة بالطهر و البراءة و القصد الطيب الشريف فكانت الخطبة قبيل تخرج أماني .. اعترض سيادة المستشار في البداية من زواج ابنته الوحيدة من شاب فقير والدته ربة منزل و والده مدرسًا بسيطًا .. لكن قال القدر كلمته و خطب ابن العباسية البار ابنة الزمالك ... الأربعاء الثاني من أكتوبر هبت نسائمه .. على حال غير الحال .. الحمدلله آفاق محمود من غيبوبته كتب له عمرًا جديدًا هكذا صرح دكتور جورج الطبيب المشرف على الحالة .. خر الأب ساجدًا يحمد الله على أن كتب النجاة لابنه .. و اقدمت السيدة سنية على سجيتها و بساطتها تطلق زغاريد مكتومة تخرج من حلقها زغرودة متشنجة و غالبتها دموع الفرحة الممزوجة بتعب أيام كانت تتردد بين الذهول تارة و الألم تارة أخرى.. احتضنتها أختها فاطمة التي لازمتها طيلة الفترة الماضية .. و لكن انتبهوا جميعًا فجأة وتذكروا و تسائلوا بماذا سيجيبون محمود عند سؤاله عن أماني ... كيف يقولون ذلك .. أشفق

الأب على ابنه الذي بعث للحياة من جديد أن يلقي عليه صدمة تهزمه و تهد أوصاده وهو الآن يعد طفلاً في مقتبل عمر جديد فليس من العقل أن يكون أول ما يتجرعه في دنياه بعد البعث مصيبة .. وكان في قرارة نفسه يعلم أن لا فائدة من إخفاء الحقيقة .. عاجلاً أم آجلاً سيزول الضباب و تبزغ شمس الحقيقة بزوغًا لا يطويه ضباب أو يحجبه غمام .. اقبلوا جميعهم على محمود يمطرونه بالقبل .. يحاكونه .. يحكون له ما حدث برفق و لين .. وتهربوا كثيرًا من الأسئلة المتوقعة آنفًا إلى أن فطن محمود أنهم يتعمدون إخفاء أي معلومة تتعلق بأماني .. ثم فجأة حدجهم و قال لهم بصوت يمزج بين الحدة و الرجاء اخبروني هل ماتت أماني .. أقسم الأستاذ محسن أنها على قيد الحياة وأنها خرجت من المستشفى وقد نصحها الأطباء بالاستشفاء في مكان هادئ .. فاخذها أبيها إلى الإسكندرية تتبارك بهواء إسكندرية الطلق و مياه بحرها العاشق للجمال الأبدي .. فالأسكندرية ساحرة كعادتها و خير مكان بمصر للاستشفاء .. أتم محمود علاجه من بعض الكدمات و السحجات التي تعرض لها أثر الحادث .. خرج للبيت يأكل القلق قلبه و ينهكه التفكير ولا يعرف كيفية التواصل مع أماني بعدما ضاع تليفونه أثناء الحادث لربما يكون سرق فهناك لصوص دأبوا على إثبات أن لا شرف لديهم وهؤلاء كثر ينتشرون في كل مكان حتى في الأماكن التي تشترط الأمانة ولكن باتت الأمانة مصطلحًا قديمًا كما الشرف مصطلح عفى عليه الزمن وبات لا يصلح للاستخدام إلا فيما ندر .. ولكن محمود يشعر في قرارة نفسه أن هناك ثمة شيء يتعمد الجميع إخفاؤه عنه .. اخذ يخاطب نفسه رباه ما عسى يكون وقع أسوء مما وقع لي .. يومًا واحدًا كان يفصلني عن فرحتي الكبرى .. ما عسى يكون حدث لأماني رباه أين ذهبت ريحانتي ... لماذا تركتني .. مؤكد ثمة مكروه وقع .. قلبي يحدثني بذلك لابد أن أصل للحقيقة .. محمود الحمدلله رجع للبيت اليوم وفارق المستشفى يا بنتي .. صدر هذا الصوت من الصالة ريثما يعتكف محمود بداخل غرفته ..سمع محمود ذلك و عرف أن هذا صوت أباه يخاطب أحدًا في التليفون .. خرج متحسسًا ليقف أمام والده الذي خرس فجأة بينما الطرف الثاني في

المحادثة الهاتفية لم يخرس فظل يتحدث ، لم يكن محمود في حاجة لوقت ليتفرس أن هذه نبرات صوت أماني .. أخذ التليفون من والده الذي سلمه له طواعية ووجهه يقطر أسى و أسفًا .. وكلمها معاتبًا أين أنت ولماذا اختفيت عني هكذا .. قالت له .. لا شئ فقد كنت اطمئن عليك طول الوقت من خلال والدك .. الصدمة كانت قوية يا محمود جدًا .. لم أستطع أن أتمالكَ نفسي حتى اللحظة .. أرسل تنهيدة من الأعماق تعبر عن راحته لسماع صوت أماني تلك التنهيدة نفسها ولجت لقلب أماني التي فهمت كل ما تبوح به من أسرار و حكايا .. تنهيدة واحدة مرسلة من قلب عاشق قادرة على تلخيص ما آل إليه قلب مرسلها من تعب ولوعة اشتياق .. بل لعل أجمل الحكايا بين العاشقين هي تلك التي تتخللها لحظات صمت يعقبها تنهيدات مرسلة من قلب إلى قلب ... فأحاديث العشق والهوي يندر فيها استخدام اللسان فالصمت بوح بكل الأشياء التي يعجز اللسان عن التعبير عنها و ينأى العقل عن الخوض فيها ... هكذا كتب على الصمت أن يكون لغة للعاشقين .. أغلق الهاتف طواعية بينما انفرج قلب محمود وفتح من جديد للحياة على مصراعيها بعدما طرقت الطمأنينة باب قلبه للمرة الأولى في حياته الجديدة بمجرد سماعه صوت حبيبته .. فجر جديد استقبله محمود بقلب باسم مطمئن و نفس مشرقة وعين تبتهل بالدموع خشية لخالقها بساحة مسجد النور بقلب ميدان العباسية ، أدى صلاته على أكمل وجه ثم رجع قاصدًا بيته صعد إلى غرفته لملم بعض متعلقاته و عزم على الذهاب إلى الإسكندرية لملاقاة أماني ...

استوقفه أباه وقال له هل عزمت أمرك على الذهاب . اجابه بإماءة مقتضبة ذات معنى .. فربت أباه على كتفه وقال له امض إلى حيث تشاء و أعلم أني في ظهرك أقومك و أقف بجانبك ليس كأب مسئول ولكن كصديق مخلص و كصاحب أمين .. فعانقه محمود و لثم يده داعيًا له بطول العمر و الصحة .. ولمح من طرف الباب أمه تغط في النوم فترك لها السلام مع والده و انزلق للشارع تسبقه قدماه استقل سيارة أجرة لميدان رمسيس و من ثم قطار السادسة

صباحًا المتوجه لمدينة السحر و الجمال .. قبيل العاشرة صباحًا كان محمود يطرق باب فيلا المستشار حسن عبدالمولى بمنطقة العجمي بالأسكندرية ..

استقبله عم سمير الجناينى بالترحاب ولم يستغرق الحديث بينهما دقيقة أو أكثر قليلاً وجاء السؤال الأهم من محمود عن أماني فأشار له عم سمير إلى جهة اليمين في حديقة الفيلا مخبرًا إياه بأن أماني هناك تجلس قالها له هكذا بطريقة مقتضبة و بعين منكسرة و وجه يشي بالحزن و الأسى ..

هرع محمود إلى ذات الإتجاه ناحية اليمين بقلب متضطرب يسأل نفسه ماذا حدث .. لا أفهم .. هناك شيء عجيب .. قلبه في أوج إضطرابه يناجى ربه .. رباه سلم يا رباه ..

لمح أماني من ظهرها جالسة على كرسي من الخيرزان المصنع يدويًا .. ففرح أيما فرح عاصفة فرح اجتاحت نفسه ودبت الحياة فيه من جديد .. وما أن اقترب منها حتى تغاضى عن معظم قدمه في المشي و اتكأ على أطراف الأصابع متحسسًا الأرض كي يفاجئ حبيبته لكنها شعرت به قبل أن يقترب فكأن قلبها أومأ إليها بأن نصفه الآخر على بعد خطوات .. هكذا الأحباب يشعرون بمدى القرب و البعد بأشياء لا يمكن تداركها و لا يقف على حقيقتها إلا من قدر له ذات يوم أن يكون أحد أطراف اللعبة الجميلة.. لعبة الحب ..

غالب قسمات وجه أماني مزيج من فرح بهيج و أسى واقع ، لكن محمود كانت فرحته باللقاء أقوى من أن يتدارك شئ آخر يخبئه القدر .. إلى أن بكت أماني بكاء منهمر وبات أنينها و تشنجها يمزق فؤاد محمود إربًا .. ماذا دهاك ؟ ماذا حدث ؟ هذا كل ما قاله محمود وهم بمد يده و تشابكت الأيادي وانتظر مشتاقًا لأن تقف أمامه بأسرع وقت ليحتضنها فيكفكف بذلك أدمعها و يداوي جراح العمر مجتمعة ..

لكن بكائها ازداد و وجهت عينيها جهة اليسار قليلاً فتبعتها عين محمود ليستقرا جميعهما أمام كرسي متحرك ..

هكذا تبدت الحقيقة واضحة كالشمس في كبد السماء ، أصيبت أماني إصابة بالغة في العمود الفقري أدى لشلل دائم ..

هكذا إذا وضح سبب الهجر .. باتت الحقيقة صدمة تملكت من محمود ولم يفق إلا بعد الظهر ثم بدء يدرك ما هو واقع فيه الآن فتحدث مع حماه عن ضرورة عرضها على طبيب كبير حتى لو أحتاج الأمر للسفر للخارج ..

ولكن أخبره سيادة المستشار بأن هذا ما حدث بالفعل و تم عرضها على مجموعة من الأطباء الألمان المتخصصين و غيرهم ولكن النتيجة الحتمية هي شلل في فقرات العمود الفقري لا يمكن معالجته .. هذا هو الواقع الآن ويجب التعامل على أساسه .. وقال له أنت مثل ابني و كأب مسئول أقول لابني لا مفر من الإبتعاد فهذا أفضل لك و لها ..

الإبتعاد .. كلمة تقطر جفاء و تنضح بالذل و العار الذى سيلاحقان من تخلى عن دوره إلى ما قدر له من عمر يعيشه ..

بعد سقوط ورقة التوت و تعرى ما تعمد حجبه آثر الأب العودة للقاهرة لمباشرة الأعمال بصورة طبيعية ، استقل عربته المرسيدس مصطحبًا أسرته و جلست أماني في المقعد الأمامي بجواره بينما جلست حرمه مع محمود في المقعد الخلفي ، ساد الصمت كل شئ ولاحت أمارات الضيق في الأفاق و صار الجو محتقنًا و مختنقًا ، جلست أماني في حسرة بالغة وألم من الضلوع للقلب نافذ ، و لم يكن محمود في حال أفضل فقد حاز بغم الدنيا كله و اجتمعت كل مرارة عرفتها الحياة فاستحالت علقمًا القم فيه ، و زحفت جحافل الحزن كسرايا جيش غاشم فاحكمت حول قلبه حلقاتها و بادرت سهام اليأس باستفزازه و ضاقت عليه دنياه وأخذ يحدث نفسه سرًا ريثما ينغمس رأسه بين ركبتيه تارة

و مغطى بكفيه تارة أخرى ، يعض الألم قلبه وتعلن نفسه الإنهزام فوق مذبحة القدر وكم ذا من مذابح قضت على أبطال في أوج بطولتهم و مقصلة نصبت لشاب كان ينظر له بعمر مديد..

في غرفته بالقاهرة كان الإنهيار الأكبر ، اجتاحته نوبات بكاء عارمة و سكب أدمعه فاغرق خديه و أحمرت عيناه و أكلت الحسرة قلبه و شعر بوخزة ألم في صميم الفؤاد وكأن خنجر غرسه أحدهم في سويدائه ، إن كل الدموع التي بإمكانه سكبها لن تكفي للتعبير عن حجم الألم الذي يستقر بأعماقه ..

انخرط في أحاديث كثيرة مع نفسه ، استمع لما يعده أبواه نصائح والتي مفادها أن يتنحى عن ذاك الحب الذي كان و أن يستمع جيدًا لصوت العقل الغالب على أمره في كل زمان و مكان ، و أن سيادة المستشار على حق حينما قال له إن الإبتعاد هو خير وسيلة لهما .. لكنه شعر بأن هذه الترهات تدفعه دفعًا إلى ما يسمى بالنذالة ، سيصبح في المستقبل نذلاً كبيرًا .. كيف ينظر لنفسه في المرآة ؟ في وجه طلابه ؟ كيف يقف يناقش رسالة الدكتوراه في ميثاق الشرف الإعلامي ؟

أي شرف هذا الذي يرجو مناقشته و الدفاع عنه ؟ فليدافع عن نفسه إذًا باعتباره تخلى عن الشرف .. الشرف في الحب هو بمثابة العمود الفقري فلن ينصب للحب ظهرًا ولن يقومه شيء بقدر الشرف ..

انقضت أيام كبيسة مرت وتيرتها صعبة بطيئة الثوان كأنها سنوات ، أصابع الإتهام التي كان يراها في كل مكان حوله حتى وهو ماكث في غرفته وحيدًا يناجي حوائطها الأربع ، خيل إليه بأن هناك أصابع تنبصق من الحوائط تشير إليه لكونه نذلاً كبيرًا تخلى عن محبوبته.. وخيل له أن سقف الغرفة يبصق عليه ، وفي طريقه للجامعة الناس و الشجر و الدواب يبصقون عليه .. تقلص وزنه و ركبه الهم و شعر الناس حوله بأنه كبر مرة واحدة بأكثر من عشر سنوات .

ناشده أباه بأن يهون عليه نفسه .. فتبادلا الحديث و أعلمه محمود بأنه سيفعل ما يجب فعله و ما يراه مناسبًا لوضعه و مستقبله و سيضع حتمًا نصائحه في ذاكرته دومًا .. بدا الأمر وكأن محمود استسلم أخيرًا بعد مناورات مع نفسه ومع عائلته و مع المستشار حسن عبدالمولى و جفاء أماني و تمنعها عن الرد على مهاتفاته التي قلت تدريجيًا إلى أن شحت ومن ثم انقطعت ، بدا وكأنه اقتنع بفرضية الأمر الواقع ، و بنصائح الكافة ، و جفاء أماني كان الدافع الأكبر للرضوخ للفكرة و بدا يتخلص من الماضي القريب و مشكلاته ، و اهتم أكثر بمستقبله ، و أخذ يركز على دراسته و طلابه و انخرط في الكلية أكثر و فتح أبوابًا كثيرة و متعددة للنقاش مع الناس ود لو ملك أذنيه لكل الناس فاستمع إلى شكواهم و معتقداتهم عن الحياة و مآسيهم و أفراحهم و أتراحهم ، باتت هذه لذته الكبرى ، يذهب للجامعة يلقن تلامذته دروسهم يحاورهم ، يصادقهم يكسر كل الأبواب العاجية التي كان ينعزل خلفها فيما سبق يترك باب مكتبه مفتوحًا للكافة ، يحاور الساعي و عامل النظافة و يسير مع عمال الكافيتريا و يحتضن تلامذته كما لو كانوا أصدقائه ... بدا سلوكه غريبًا جدًا فعلى غير المعتاد ظهر بوجه آخر و إن كان أكثر أريحية لكنه بدا حقًا غريبًا ..

و ذات ليلة خميس مزدحم كعادة الخميس بالقاهرة تتكدس الشوارع بالناس و العربات تبدو متلاصقة من بعضها البعض رجع محمود للمنزل قبيل المغرب منهك الجسد لكن رافقه في الرجوع صديقه و أستاذه الدكتور أحمد صلاح أستاذه بالجامعة و المشرف على رسالة الدكتوراه الخاصة به و التي تتمحور حول ميثاق الشرف الإعلامي ، الدكتور أحمد كان قريبًا من محمود ويعرف عنه كل شئ و بالطبع كان يعرف خطيبته ، سأله إبان العودة حول رسالة الدكتوراة التي توقف عن العمل عليها وكأنه نسيها ، فاجابه محمود بأنه نتيجة الظروف التي وقعت له لكنه سيعود إليها قريبًا و يكمل ما بدأه ، سأله ومن كانت تعاونك .. هل وجدت لها بديلاً ؟

وقعت الكلمة في نفسه كالصاعقة والتمعت عبرة في عينه ، قبل أن يصدمه بالسؤال الثاني .. خبرني يا محمود ما هو تعريف الشرف .. أقصد ذاك التعريف الأعم والأشمل الذى يتفوق على معناه في الإعلام ليعم كافة المواقف و التعاملات الإنسانية .. صمت الكلام بينهما وكأن لغة الكلام ماتت وقتها .. أسئلة لا إجابة نظرية لها ولكن يتطلب الأمر شيئًا أعظم أثرًا من النظريات و أكثر فاعلية من الكلام المنمق .. تبادلا نظرات خاطفة يراقب أستاذه إنفعالاته .. تركه بالقرب من ميدان العباسية نزل محمود بدون كلمة فقط أشار له تعبيرًا عن شكره و ذهب لبيته و كلمات الأستاذ ترن في أذنه ، وقعت في صميم فؤاده .. وعيناه محمرتين و رأسه تدور ..

نام نومًا عميقًا بملابسه لم يستطع القيام رغم محاولات والديه المتكررة ، أصر على النوم جسدًا ، إلا أن عقله ظل مستيقظًا يتصارع مع قلبه ، صراعًا أبديًا لابد فيه من منتصر ، لطالما تجنبًا الصراع في تلك المسألة .. لكن اليوم حدث أن وضع أحدهم يده على الجرح الذي ظن عبثًا أنه شفي من تلقاء نفسه .. ما حقيقة الشرف إذا وما جدوى التشدق به ونحن في معاملاتنا أبعد ما نكون عنه ، كيف يقف أمام العالم يناقش رسالته في الشرف و يلزم به الناس ونفسه أحق بالالتزام به ؟

بأي وجه يقابل تلامذته ؟ .. كيف ينظر لنفسه في المرآة هل ينظر ليرَ إنسانًا محترمًا أم نذلًا في جلباب ليست جلبابه بل ينبغي عليه أن يوصم بالنذالة و أن يرتدي علامة تدل على ذلك و أن يعترف للعالم بذلك و يتنحى عن الوقوف في خندق مدعي الشرف طالما لا يملك برهانًا يؤكد حقيقة إدعائه .. و الأهم من ذلك كله ما ذنب تلك المسكينة فيما وقع لها ؟ .. ما ذنبك يا أماني ؟ وما ذنب كل أماني انتزع القدر منها قوتها و حكم عليها بالعجز مبكرًا ، وما ذنب من يستقبلون الحياة منذ الولادة وقد تخلى عنهم عضوًا ما من أعضاء جسدهم . فبمنتهى الوقاحة ننظر إليهم وكأنهم أقل من البشر العاديين .. ما ذنبهم ؟؟ ، ما ذنب من يفقدون أعضائهم إثر حادث أو يولدون بدونها ؟ ما ذنب من تسلخ

النار جلده أو تكوى جبهته .. هل هذا عار عليه أم عار على من يتبرأ منه و يبتعد عنه .؟

ماذا لو استبدلت الأماكن وكان هو مكانها و عجز عن القيام ماذا كان ينتظر منها ؟

ماذا لو فعلت هي مثلما فعل و رمت به وبماضيه و تنازلت عن حبها المزعوم و قالت نفسي و مستقبلي كما قال ..

ماذا كان يسميها وقتئذ .. مؤكد عاهرة أو على أقل وصف سيسميها خائنة نذلة ، لم تكن تحبه ؟

ماذا لو لم يفق من غيبوبته ؟

أي جحود هذا الذي مُني به ؟ أي حقارة هذه التي اتسم بها ؟ من أين له بقلب يحمل كل هذا الحقد و الكره و التنصل .. من يملك أمنه و أمانه في هذا العالم ، يد القدر أقدر و أسرع مما يتخيل أي أحد .. فلم يسلم منها أحد قط هو نفسه غيب عن العالم قرابة العشرة أيام ولولا لطف الله به لربما امتدت لعشرة سنوات وربما لم يكن له عودة ..

صارع كثيرًا للإندماج في الوضع الجديد وتصديق أنه يمكنه الانفصال عن محبوبته بهذه البساطة ، نسي أنه حفر حبها في وجدانه و نقش رسمها على جداريات قلبه ..

لم يجد في الهرب راحة ، ولا الإندماج مع الناس عوضه عنها ، صورتها كانت تتمثل في كل شئ حوله ..

اعترف أمام نفسه للمرة الأولى منذ وقع الحادث بأنه لم يعد قادرًا على تمثيل دور اللامبالي .. أضحى العالم قاحلاً مجدبًا وبارت مراعيه و جفت آباره و لم

تعد تشرق فيه شمس منذ اللحظة التي انقطع الوصال وقرر ظلمًا لنفسه الابتعاد عن أماني .. لم تعد تشرق الشمس هذا ليس كذبًا صحيح أن الشمس لم تنقطع انقطاعًا كليًا ولكنها بدت شمس مغايرة لتلك التي كانت تشرق في الأيام الخوالي ، كانت الشمس في وجود أماني تشرق باسمة تبعث على الحب و الحيوية أما في بوتقة الهجر للمحبوبة كانت الشمس تظهر على استحياء أحيانًا و أحيانًا تشرق و تغرب دون أن تترك أثرًا في نفسه هكذا إشراق و غروب بلا هدف وكأنها مثل موظفي الحكومة تكرر بشكل يومي ذهابها للعمل بشكل روتيني لأداء واجبات وظيفة محددة بلا طاقة إبداع و دون ترك أثرًا حتى يرحلون الرحيل النهائي ..

استقبل صباح يوم جديد بمشاعر مختلفة و شوق جديد ينبض به قلبه ، وحبًا مفعمًا لكل الدنيا ، وكأنه يقع في الحب للمرة الأولى بحياته ، نشوة غريبة و لذة فرح تركت أثرًا لها في فمه ..

مضى يثوب إلى رشده مرة أخرى و يقف على لب الحقيقة المفتقدة ، ويظهر معدنه الأصيل بعدما زال ما رآن عليه من أفكار خاطئة ومشاعر مغالطة لمشاعره الحقيقية ... تذكر أماني وود لو كانت معه الأن فيخر راكعًا أمامها متوسلاً طالبًا الصفح و الغفران ..

سرى إليه حنينًا موجعًا لمحبوبته التي تركها هكذا و استبدت به رغبة عارمة في البكاء فبكى حتى فرغ ، وسرعان ما لملم نفسه و هرع للشارع كان اليوم في أوج صباحه و الشمس تبادر بطرق بيوت العوام تنقر بأشعتها كل مكان إستطاعت بلوغه ..

فسار على قدميه يستنشق عبير الصباح ويعبق به صدره ، و يأخذ من شمسه الجديدة العائدة قبسًا من أشعتها الذهبية و يخبئها في طيات ملابسه وكأنه يحملها لمن حملت إليه الدنيا بأسرها على أكفها في سالف الأيام .. وصل سيرًا على قدميه لميدان رمسيس ، قطع المسافة سيرًا دون شعور بتعب أو ملل من

الطريق لا لشيء وكأنه رفض أن يقطع تناغمه مع ذاته في تلك اللحظات شيء .. ثم استقل أوتوبيس للزمالك ونزل بشارع ٢٦ يوليو و هرع يغوص بقلب جزيرة الزمالك حتى وصل لشارع الدكتور طه حسين حيث تقطن أماني مع والديها .. وقبل أن يطرق الباب تراجع خطوات للوراء و القى نظرة على البيت فبدا كسابق عهده به إلا أن الحزن يخيم عليه وكأنه يكسو جنباته و الشجيرات المتناثرة حوله بدت أوراقها في وهن شديد مؤكد حدث ذلك لأن من كانت تتعني بهم في الأيام الخوالي هي الآن في أشد الحاجة لمن يعتني بها ...

نظر نظرة طويلة للبيت وكأنه يملئ عينيه وقلبه منه ليطفئ نار الأشتياق المؤججة في حناياه ، ثم انصرف خاف أن تصده أماني فينزعج منها وهو الآن يبدو كالجريح مثلها بل وأكثر فهو لم يؤذه أحد مثلما آذى هو نفسه إنه جريحًا في ذاته و كرامته فلأول مرة يشعر بمدى حقارته و دنوه .. وآثر أن تكون العودة بشكل مختلف وبإعتذار يليق بمحبوبته ومكانتها الخالدة بقلبه .

رجع للبيت كان والديه منزعجين لغيابه المفاجئ فلم يره أبوه في الصباح الباكر في موضعه .. ألق السلام عليهما .. دخل لغرفته استبد بها و فزعت يده تقلب في ذكريات العهد القريب فأخرج صور كثيرة له مع أماني .. ها هي صورة مشرقة من صور خطبتهما وهي تضحك ملئ شدقيها مخبئة فمها بيدها اليمنى فبدت أصابعها الرقيقة كأنها خلقت من ثلج ناصع البياض .. ومشربة وجنتيها بحمرة زادتها جمالاً فوق جمالها الأخآذ .. قبل الصورة ودمعت عيناه , فلملم نفسه سريعا وامتدت يده إلى رسالة الدكتوراه التي ينوي مناقشتها ومزقها نصفين ووضعها على مكتبه الصغير ، ثم اخذ يكتب رسالة بعنوان " الضمير " ...

طرق الأب باب غرفته فأذن له بالدخول ، دار حديث قصير بينهما لام أباه على أن شجعه على الإبتعاد عن محبوبته فألق أباه باللوم عليه هو و قال ما منعتك عنها وما ايدتك بل تركت لك جميع الأبواب مفتوحة تدخل من أحدهم

فاخترت بمحض إرادتك وما كان لي كما قلت لك إلا أن أقف بجانبك صديقًا مخلصًا قبل أن أكون أب لك ..

وزاده الأب تشجيعًا إذ اعلمه أنه لم يكن راض عن ما اقدم عليه وما كان يجب أن يحدث مثل هذا الأمر أو أن تصدر هذه النذالة منه أبدًا .. عانقه عناقًا طيبًا ودعا له بسداد الرأي و البركة و العلم و سعة الأفق..

ذهب في اليوم التالي أكثر أناقة أصر على إرتداء قميصه الأزرق الذي أهدته إياه أماني أبان عهد الخطوبة ، تشدق بالذكرى السعيدة كي تشفع له عند محبوبته المسكينة فيرق قلبها و تخضع نفسها لقبوله ..وصل لبيتها و طرق الباب ففتح له وأخبره الخادم بأن لا أحد موجود وأنهم سافروا جميعًا منذ شهر ... فشعر بخيبة أمل وإنكسار عميق في نفسه ولعل خيبة الأمل لم تكن بسبب عدم وجود أماني بقدر ما كانت بخيبته في نفسه إذ وصل الجفاء به لأن تنقطع أخبار من كانت تفصله شعرة عن الزواج بها ، شهرًا كاملاً دون أن يعرف أو حتى يحاول المعرفة .. مرت أيام كان يتصل بالبيت مرات عديدة كل يوم حتى يعرف الأخبار ويقف على المستجدات ، لا يوجد وسيلة تواصل بعدما تنازلت أماني عن هاتفها ولم تعد ترغب في التواصل مع العالم بأسره ..

وبعدما فاض الكيل به تواصل آسفًا مع سيادة المستشار حسن عبدالمولى ، فأجابه المستشار بنبرة عطف غير معهودة فيه و زاد من آسف محمود أن عاتبه المستشار على قلة تواصله و قال له ترددت كثيرًا أن أهاتفك خشية أن لا تكون لك رغبة في التواصل لكن ها أنت تعود وتسأل وتخيب ظني .. هل ما زالت أماني في قلبك . فأردف قائلاً نعم يا عمي هي لم تتزحزح عن قلبي قيد أنملة .. حسنًا نحن الآن في مرسى مطروح و سنعود غدًا .. دعنا نرتب الأمور سويًا هكذا قال حسن باشا ..

ارتاح محمود جدًا لطريقة والد أماني معه و اطمئن قلبه لتجدد علاقة مثل هذه .. و في الغداة تواصلا معًا و اتفقا على أن يمهد الأب لابنته تلك الزيارة ومن

ثم يمكنه المجئ حال الاتفاق على الموعد ، و بالفعل قام الأب بتمهيد اللقاء ولكنه تصادم بردة فعل ابنته الحادة والتي لم يكن يتوقعها ، رفضت وبشدة أن يأتي وانتابتها نوبة غضب بدت جلية على وجهها الذي تغير كثيرًا ..

واختنقت بالبكاء وهي تبرر رفضها قائلة " أين كان محمود حينما كنت أمر بأحلك الأيام و أصعبها وطئة عليّ، هل يظن أنني دمية يتركها دهرًا ثم يرجع يلتقطها وقتما يشاء و بالطريقة التي تحلو له ، لما لا فهي دمية عاجزة لا تقدر أن تطعم نفسها أو تقضي حاجتها دون مساعدة أحدهم .. أم أنه أكتشف شيئًا ما بداخله يسمي ضمير هل أفاق من سباته العظيم على حين غرة فأوعز إليه بأن يأتي ليعطف على دميته المسكينة العاجزة ... لا يا أبتي بلغه أن الدمية العاجزة تأبى إشفاقه وترفض عطفه .. فليتركها رأسًا في رأس فلا حاجة لي به ولا حاجة له بي "..

آثر الأب إغلاق الحديث إشفاقًا على ابنته المسكينة واحتضن رأسها و قبلها ، مؤكدًا على أنه لم و لن يرغمها على قبول شيء لا تريده .. فلتهدأ الآن ودع الحديث لوقت لاحق ..

راقبت السيدة حفيظة والدة أماني الحديث الدائر بينهما من بعيد مؤثرة الأنزواء ليكون لها دور آخر ، سألها بعد ذلك حسن باشا قائلاً ماذا حدث لها ؟ .. لماذا كل هذا الكره ؟ إن قلبها الرقيق لم يعرفْ الكره أبدًا !

فأجابته حفيظة هانم إنه الحب وحده ولا شيء سواه ، أماني لها قلب ملائكي لم يعرف الكره قط ، ولكن إبتعاد محمود عنها حتى و إن كان برغبتها الملحة قد ترك أثرًا لجرح لن يشفي إلا باللقيا .. أنا أعرف ابنتي أكثر من أي أحد ، مسكينة إن قلبها يتفطر ونفسها تغرق في بحور حزن مقيتة .. كن يا الله في عونها وهون عليها مآس حياتها ..

أشارت حفيظة على زوجها بأن يقابل محمود في الخارج و يعرف منه ماذا يريد تحديدًا لو كان باق على العشرة و الحب ومن ثم نستطيع العمل على إقناع أماني .. و إن كان غير ذلك فلا داع للنبش في جثة الماضي ،

و بالفعل قابله في ساقية الصاوى في الليلة الثالثة له في القاهرة بعد العودة ، فأقسم له محمود بأغلظ الأيمان أنه عازم على العودة و مصر إصرارًا لا رجعة فيه على إتمام فرحه بأماني مهما حدث .. وأنه نادم أشد الندم على ما فعل ..

ابلغه بأن الأمور لن تجدي هكذا مع أماني و أنها تشعر بألم عميق جراء ما حدث لها و أنها لم تكن تتوقع أن تتخلى عنها لحظة حتى و إن كانت هي من طالبت بذلك ...

انتهى اللقاء على تمهيد الحديث لأماني ثم لزيارة له و أن يحاول استدراجها للحديث و التعاون معًا دون ذكر شيئًا ما عن الماضي ..

حدث ذلك سريعا فبعد أسبوعًا واحدًا من آخر حديث زارهم محمود زيارة بدت عادية و مهد الوالدان كثيرًا لهاتيك الزيارة ، تحاشت أماني النظر إلى محمود صراح ..

تأثر محمود عندما رأى منظر أماني فكان منظرها وهي قعيدة على كرسها المتحرك يثير الرحمة ويبعث على الشفقة ، وجهها المضيء انطفئت مصابيحه وترك الحزن آثارًا مجحفةً في صفحة وجهها ثم تطرق لجسدها فنفض عنه شحومه و جماله هو الآخر ، ذبل عودها فبدت وكأنها سيدة كبيرة في جسد طفلة صغيرة واقفة على شفا حفرة من أن تصبح عجوزة أنهكها الهِرم ، تولى ظهرها كل بواعث للأمل ، وتكتفي بالبؤس أنيسًا لأيامها المتشحة بالعجز و السواد ، لم يحتمل محمود منظرها فبعد دقائق من النظرات و الحديث الصامت الذي بلغت حدته أن غيبت محمود عن الوعي تمامًا لشعوره بالذنب

الذي أوقع بحبيبته في شَرَك العجز و الكهولة و الخفوت ، وسقط طريحًا على الأرض فهب الأب و الأم مسرعين يحملونه محاولين استعادته للوعي وانخلع قلب أماني فزعًا حتى أنها تناست عجزها وجعلتها الصدمة تهب للمساعدة فدفعها عقلها بواعز من القلب فحرك جسدها العلوي بينما رفض بقية الجسد الإنصياع لهذا الأمر فسقطت هي الأخرى من على كرسيها فاحتضنتها الأرض فهرعت أمها لنجدتها وتركت زوجها يحمل محمود ، مرت لحظات كارثية على البيت ، افاق محمود بعد دقائق واستعاد أنفاسه للحياة ، والقى على الجميع حجة لما حدث بأنه يجهد نفسه كثيرًا في البحث و الدراسة لإكتمال رسالة الدكتوراه ليستعد للمناقشة لكن بلا فائدة وهو ما جعله يفرط في صحته كثيرًا ، ثم ترائى له فكرة أن يبرر وجوده من أجل ذلك فهو يعرف أن أماني لا تقبل العودة بهكذا طريقة وما وقع له الآن كان خيرًا كثيرًا ، فمن المصائب ما تحمل في جنباتها الخير ومن المغاليق ما يحمل في جبهته مفتاحًا كبيرًا للفرج ، الغير متوقع يحدث كثيرًا عندما تكون نوايانا سليمة..

اتفق مع أماني بحق الأيام الخوالي أن تقف بجانبه فهو يحتاج لها جدًا ، فلتقف بجواره حتى يتمم مناقشته لرسالة الدكتوراه ، و بعد ذلك لها حرية الإختيار كما تشاء ...

وافقت أماني بشرط أن يلتزم كل طرف ببنود الإتفاق .. وبعد الإنتهاء ومناقشة الرسالة فلها وحدها حق تقرير المصير .. تنفس محمود الصعداء وشكرها و شكر الوالدان ثم انصرف وبقلبه غصة وفرحة مجتمعتان معًا ، فكان يبتسم و عيناه تزرفان دموعًا باكيةً ينتحب وقلبه يرقص فرحًا .. حمدالله كثيرًا .. و قال باقٍ من الزمن شهرين يمكنني لملمة نفسي و أن أمد نفسي بقوة من قوة أماني و أن أحاول إصلاح ما اتفق على إفساده الأيام و الغباء الذي اصابني .

شهرين شد فيهما محمود مأزره و أيقظ آماله وخاصم النوم جفنه و استدعى عزيمته الصلبة التي عاهدها في نفسه ورسم خطته .. فكان يقضي ما يقرب من

خمس ساعات يومية مع أماني في البيت يتناقش معها بشأن الرسالة التي كان قد سبق و رسم مسارها وحدد موضوعها في " ميثاق الشرف الإعلامي " وطفقت أماني تساعده بكل طاقتها وشيئًا فشيئًا لان الحديد وزال ما قد رآن على القلب من صدأ ، و جرف ود اليوم مكاره الأمس ، و بدا الحديث يتطرق إلى أسلوبًا أكثر لينًا و رقة وأطلت ذكريات الماضي برأسها فوق مجريات الحاضر ، صار محمود في خطته ينفذها بحذافيرها يحاول كل يوم خلال الشهرين أن يتقرب أكثر من أماني و يذكرها بالأيام الخوالي و الأحلام المعطلة ، فتارة يرتدى قميصًا هي من اشترته له و تارة يظهر الساعة التي أهدتها له في عيد مولده ، العطر التي تحبه ، كلامهما ، طريقة الحكي التي تفضلها ، الإبتهال الذي تعشقه ، الأغنية التي تبهجها ، و داوم على وضع العطر التي احبته كثيرًا في سالف الأيام ... دق قلب أماني بالحب وحاولت أن تقبض على قلبها كثيرًا و لكن آثار الحب ظهرت عليها حتى بدى ذلك شيئًا ملحوظًا للجميع ، فضربت الحمرة وجهها الذي عاد إليه دماؤه المفقودة و نضرت بشرتها بعدما ظن أنها نضبت .. ظهر الحب جليًا عليها في إهتماها الظاهر بإنتقاء ملابسها والجلوس ساعة أمام المرآة قبل أن يأتي محمود .. ظهر الحب لكنها أسرته في نفسها ولم تبده خشية أن تنكسر كما حدث في السابق ثم إن كرامتها لا تسمحْ لها بذلك ، لن تقبل بأن تكون عالة على أحد ، إن مصيرها محتوم ، قضى عليها بالجلوس على كرسي متحرك طيلة العمر تعاني من أجل الحصول على طعام أو شراب و تكابد من أجل قضاء حاجتها .. فمن يحتملها في ذلك ؟

والد محمود تعجب كثيرًا مما يحدث رغم أنه كان على علم بمجريات الأمور ووافق محمود في كل شئ .. لكنه تعجب من أن محمود يجلس معها كل ليلة ثم يرجع يذاكر و يعد و يبحث حتى مطلع الفجر ثم ينام بضع ساعات قليل جدًا لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة ، ولكن محمود طمأنه وقال له لا تشغل بالك فأنا ماض في خطتي ، أنتظر منك فقط أن تسكب على الدعوات الصادقة من قلبك الطيب وليباركنا الله جميعًا ..

ولم يمضى الشهرين إلا بعدما أصبحا الحبيبان على حال غير الحال ، هكذا ترائى لمحمود أن خطته تسير في درب النجاح فتعلقت آماله بحبل الله و سأله المدد و الرعاية حتى يتم له ما أراد ، وتهيئ الجميع لصباح يوم المناقشة وكان ليلتها كالعادة مع أماني تساعده و تشد من أزره و تدعوا له بالسداد و التوفيق ، و أشركها في كل شئ حتى ملابسه التي أشارت له بإرتداء ألوان محددة لمثل هذه المناسبة الكبيرة فأذعن لها ووعدها بذلك ..

وعندما عاد محمود لبيته ظل للصباح يراجع ويدقق في مراجعه و كتبه التي يأخذ منها ويبنى أفكاره التي تدور كلها حول موضوعه المحدد آنفا ..

وفي الصباح الباكر تهيأ وجلب البذلة و القميص والكرافت التي اختارته أماني و بدا نظيفًا حليق الذقن مهندم الثياب يطفح طاقة و نضارة ، و كذلك الأستاذ محسن و زوجته المصون سنية تهيأ لإرتداء أغلى ما يمتلكون من أجل هذا الحدث الجلل و انزلقوا جميعًا ترافقهم السعادة أنى نزلوا ، و على الناحية الأخرى كان المستشار حسن عبدالمولى يصطحب زوجته و ابنته أماني في عربتهم لحضور نفس الحفل و مؤازرة محمود ، ارتدت أماني فستانًا مخمليًا رقيقًا كان هدية من محمود لترتديه في هذا اليوم .. وبعد محاولات مع نفسها التي أبت للحظة الأخيرة أن تذهب ولكنها تغلبت على كل ذلك و آثرت الوقوف بجانب حبيبها في يوم عصيب كهذا اليوم خاصة وهو من طلب تأييدها ، إن لأماني قلب طيب رقيق كأفئدة الطير ، باستطاعته أن يمح الكراهية أولاً بأول ..

اكتمل نصاب الحضور وألقوا السمع منصتين لقول محمود الذي ألق كلامًا بليغًا حول الشرف الذي هو مقياس لكل من يعمل بالإعلام ومن يحيد عنه فقد خرج عن نطاق المهنة التي أصلها الشرف ، ومن ترك الأصل فهو ناقص لا تكمل الفروع نقصه .. و ثم انتقل للحديث عن الضمير و أقسم أنه هو الأحق و الأولى بالمناقشة و أنه اختاره بديلاً أعم و أشمل لكلمة الشرف و حاور

الأساتذة بثقة لا حد لها وبتمكن واضح للعيان ، فاستحق محمود واجازوا له درجة الدكتوراه ..

وطلب كلمة يلقيها للجميع فأذن له ، فطفق يخطب خطبة عظيمة فأقسم لهم بأنه لا يستحق هذه الدرجة ولكن من يستحقها إنسان آخر تعب أكثر منه وتحمل أكثر منه و مالت عليه الدنيا بجناحيها .. فإن كان الحديث عن الشرف فقبل الشرف يكمن الضمير ، و بالضمير وحده يمكن للإنسان أن يعي معنى الشرف في معاملته مع الناس ، الشرف في معاملته مع نفسه ، الشرف في معاملته مع الإختيار .. فلو كان لكل منا ضمير حي لكان حريٌ بنا أن نقف بشرف مع كل خطوة نخطوها و كل إختيار نختاره و كل كلمة نتلفظ بها ، فيحرك الضمير دفة الشرف ناحية الإتجاه الصحيح ..

ثم أندفع من فوره ممتطيًا ظهر السلم الخشبي و هبط للأسفل حتى وقف و وجهه بوجه أماني وجثا على ركبتيه أمامها ..

-امنحيني شرف الوقوف بجانب إختياري الأول و الأوحد .

-ماذا تريد ؟

- أنتِ تعرفين .

- لكنك ستتعب !

- سأتعب أكثر لو عشت بلا شرف وبلا ضمير وسأوصم بالعار جراء عدم وقوفي بجانب إختياري .

-أنا أشفق عليك .

- لو كنتِ حقًا تشفقي على حالي فلتقبليني إذًا .. ردي إليّ قلبي .. ردي إليّ كرامتي و شرفي أمام نفسي قبل الناس .

-الوضع لا يؤخذ بالعاطفة .

- صدقيني إن الوضع لا يؤخذ بغير العاطفة .

- ما الذي يجبرك على ذلك ستعيش تعسًا أيها الأبله ، فبدلاً من أن تتزوج امرأة تساعدك ستجد نفسك موكلاً ليس بنفسك وحسب بل بي أيضًا .

- وأنا قبلت فقط لأن هذا إختياري ولأنه قدري و أنا مؤمن بهذا القدر إيمانًا راسخًا كإيمان طفل صغير بقدرة أبيه على مجابهة العالم بأسره .

- أنا أحلك من وعودك السابقة صدقني فما تقوله لا يقبله منطق .. كيف تتزوج من عاجزة مثلي ..؟

- الأمر بيديكي ،فإما القبول الآن و إما سأمضي الآن إلى نهر النيل وهناك ستنتهي المسألة وستقتلع جذوتي من الحياة برمتها .

طفقت أماني تكفكف أدمعها المنهمرة و قلبها يطفح أحاسيس مختلفة بين بكاء وفرح عارم و خوف ظل به عامر ، و قلق و إرتباك واضح ، ثم أردفت قائلة وهي تنتفض :

- حسنًا .. لا داع إذًا من نهر النيل ولكن دعنا نؤجل ذلك للبيت فلدينا بيت نناقش فيه كل أمورنا الخاصة فلقدت أفسدت بحماقتك حفل الدكتوراة التي طالما حلمنا به والناس حولنا ينظرون ..

- إذا فهذه موافقة وخير البر عاجله خاصة في مثل هذه الحالات .

-ماذا تقصد ؟

- إن من بين الحضور الشيخ حسين أبو اليزيد مأذون الحي وسنعقد زواجنا في الحال .

-أنت تفسد حفل الدكتوراه .

- فليسقط يا حبيبتي الحفل ولتسقط الدكتوراه ، ولتسقط الكلمات التي تستهلك في مثل هذه المناقشات و الإجتماعات ثم لا تخرج عن كونها نظريات حقيرة يفشل في تطبيقها من يتشدق بها ، اللعنة على كل الكلام الذي لا يقبل التطبيق ، اللعنة على كل الوعود التي يحنث بها أصحابها ، اللعنة على من يدعي الشرف ولا شرف له ، اللعنة على من يسقط الضمير من حساباته .. اللعنة على من لم يؤمن بقدره و من لم يقف بجوار حلمه يدافع عنه موقنا بإختياره ولو كلفه الأمر حياته .. فبئس الحياة بلا شرف و بئس الرجل بلا إختيار ...

obeikan.com

القصة السادسة: الخائن الجميل

ليلة أمس خنت زوجتي .. هذه هي المصيبة .. و تلك هي المسألة .

منذ اللحظة المشئومة التي وقعت في هذا الإثم وأنا غارق في الكدر و الحزن ، أرق متواصل ولوعة و مرار يلقمني طيلة اليوم هذا ما جنيته على نفسي وما جناه عليّ أحد ، لا أستطع أن أعرف كيف فقدت عقلي في تلك اللحظة المشئومة ، كيف لرجل مثلي يعد نفسه من النبلاء أن يقدم على فعلة مشينة مثل هذه الفعلة النكراء .. كيف أرضي بأن أوصم بالعار بكل أريحيه .. كيف أفرط في شرفي بكل هذه السهولة من أجل لحظات سعادة زائفة جلبت المقت و الحزن علي .. كيف نسيت الله في هذه اللحظة .. كان من الممكن أن يعصف الله بعمري في تلك اللحظة .. فماذا يكون الخطب إذًا .. يا إلهي كم أنت رحيم بي إذ تركتني بعد كل ذلك أتنفس في الحياة وأعيش مثلما يعيش العبد المستقيم الدائم على طاعتك ..

لماذا نسيت نفسي و زوجتى الجميلة الطاهرة زينب ، كيف لي بالنظر في عيني ابنتي الصغيرة مليكة قلبي كيف لي بالوقوف أمامك يا فاطمة .. و بماذا سأدافع عن نفسي أمامك ، أنا لا أملك حجة ولا يمكن لمثلي أن يطرق باب الغفران أو يتوسل طلبًا للعفو ، العفو كلمة لا يستحقها أمثالي ، يقع العفو لمن أجبر على إرتكاب ذنب ، لكنني لم أرغم على شئ مهما كانت المغريات فمن الممكن للإنسان أن يلجم نفسه ولكنى أنا من تركت نفسي لشيطاني فقادني إلى تلكم المرأة الملعونة ..

ليتني لم أخرج من بيتي وقتها ليلقى القدر في طريقي امرأة لعوب مثلها ويهيئ لي شيطاني طريقًا مظلمًا لا عهد لي به ، فأسلم نفسي طواعية للوقوع في حبائلها ..

يا ويحي .. ألم أستطع لحظتها أن أقبض على لحظة واحدة أتمتع فيها بعقلي ، مؤكد لو حدث ذلك لما بعت نفسي للشيطان و وضعت رقبتي على المقصلة ، كيف أنظر في عين زوجتي ؟ متى وقفت أمامها إن الفكرة نفسها تكاد تقتلني في مكاني .. متى خطرت على بالي ، إن زوجتي تقرأ في عيني كل شئ أحاول إخفاؤه هي تقول ذلك و أنا أصدق قولها فلطالما لم أقبض على كذبة واحدة كذبتها عليّ طيلة عشرة أعوام فائتة من عمر زواجنا السعيد .. حقًا سعيد أو بالأحرى كان سعيدًا ، كان جميلاً هادئًا مطمئنًا كنت غارقًا في السعادة و الطمأنينة حتى رأسي إلى أن فعلت فعلتي هذه !!

ما هذه الوقاحة الفجة .. تبًا لي و لصنيعي و ألف تب .. كيف تخليت عن كوني رجلاً محترمًا وهويت إلى أسفل قاع السفلة و الأنجاس ... من أجل لحظة متعة ليست من حقي ، وها أنا ذا أجلس دونما الإحساس بهذه المتعة ولا بأي متعة أخرى بل إني أشعر وكأن أثقال الدنيا كلها حطت رحالها فوق رأسي ، ذهبت المتعة وكل متعة أدراج الرياح ولإن بكيت و انتحبت فلن آلام على البكاء .. إن المصيبة الأكبر تتمثل في أنني فقدت إحترامي لنفسي وهذا شئ لو تعلمون عظيم ..

ما هذه الجرأة في الإثم وهذه الوقاحة الفجة تبًا و ألف تب لي .. !

. كيف انظر في عيني زوجتي متى وقفت أمامها .. فمن أين لي بعينين صافيتين حالمتين كعيني السابقة ؟

هل أقدم على التمثيل وأجسد دور الرجل الشريف الذي يعي حق الله جيدًا وحق زوجته و حق نفسه عليه بأن تكون نفس مهذبة محترمة ، أقوم كما يقوم الممثل بأداء دور لص متمرس في فيلم ما حتى ليخيل للمشاهد أن هذا الممثل عمل لصًا محترفًا قبل إشتغاله بالتمثيل ثم ينقلب في فيلم آخر تمامًا و يؤدي دور رجل شريف يقطر نبلاً و أدبًا .. أعيش مثله هكذا كالحرباء ..

يتبلل جسدي عرقًا لا أعرف كيف لجسدي أن يفرز هذه الكمية الهائلة من العرق أنني أتصبب عرقًا وكأني أعتصر من منبت الرأس حتى أخمص القدم .. أشعر برعشة في ظهري تتملكني حتى عنقي و تتصدع رأسي دائمًا بويلات الحديث وخيالات جمًا ، ماذا يحدث لو عرفت زوجتي ؟

مؤكد سينتهي هذا الزواج ، فإن لزوجتي كرامة ... فلو تبدلت الأماكن وصرت أنا مكانها والله لما تحملت هذا العار و لأقدمت على قتلها إن القانون نفسه أباح للزوج قتل زوجته في مثل هذه الحالة .. حتى القانون لم يتحمل هذا الإثم وأعتبره أشد وطئة من القتل .. تكمن المصيبة الأكبر أني سقطت في أول إختبار حقيقي لمبادئ التي أديم التشدق بها و أنادي بالعفة و الطهارة وما أن سنحت لي فرصة إلا وجدتني أمد يدى إليها أقتنصها متلذذا بقذارتها ..

الكل يسألني لماذا أنا شارد اللب هكذا .. سألتني زوجتي في الصباح فألقيت باللوم على العمل ومشاكله التي تؤرقني وسألوني في العمل فألقيت باللوم على البيت و طلبات زوجتى التي لا تنتهي .. الحق أقول أن كل هذه حجج باطلة وما أراني إلا مكتسبًا صفة جديدة تضاف إلى الصفات السيئة التي لم تكن بى ألا وهي الكذب ، رحماك يا رباه من هذا العذاب ..

رجعت إلى البيت بعد إنتهاء عملي في وكالة الحاج رمضان السمالوطي للأقمشة أنا من أقوم بمحاسبة الزبائن ..

وتصفية الحسابات مع الموردين وكافة الأعمال التي لها علاقة بالأموال التي تدخل إلى الوكالة أو تخرج منها .

في طريقي للمنزل وما أن صعدت البيت الذي أسكن به إلا وانتابتني رجفة وكأنها رجفة الموت فأنا أسكن بالطابق الخامس ليس هذا وحسب بل إن الطابق الرابع من نفس البيت هو من احتضن غوايتي و اوقعت في بئر الخيانة مع السيدة إحسان زوجة المدعو زكي أبو السعود ، صعدت كاتمًا أنفاسي بسرعة

البرق كي لا يقع شيء مماثل لما وقع ليلة أمس و قد زلت رجلي مرة فمن السهل أن تزل مرارًا وتكرارًا .. الحمدلله لم أجدْ أحدًا ، ولجت لشقتي احتضنت ابنتي التي كانت تنتظر عودتي ، خرجت زوجتي وبادرت النظر إلى عيني ولكني كنت أهرب من سهام نظراتها ثم دخلت غرفتي و بدلت ملابسي وبادرت في إرتداء وجه ممثل بارع فألبست وجهي لباس الحنق و الغضب ولما سألتني ما بك يا حسن ؟

لماذا يقطروجهك غضبًا هكذا ؟

فهجت هياجًا كبيرًا وطفقت أكيل السباب لمرسي ابن أخ المعلم رمضان وقلت إن مرسي هذا ابن البارحة يمر علينا بين الحين و الحين ليعكر صفونا و يتظاهر بالذكاء يحاول ابن البارحة أن يتذاكى علي أنا الذي بنيت مع عمه هذه الوكالة حجرًا حجرًا ، لكن الحاج رمضان لا يقبل تدخلاته هذه و قالها له ذات مرة بملئ فيه ليس لك من الأمر شئ ومالك وللعاملين معي وتصدى له كثيرًا وحذره من محاولة المساس بي أنا شخصيًا .. ولكن ذيل الكلب لا يصلحه شيء فهو دائمًا ما يفضل الإعوجاج ..

فصدقتني المسكينة على الفور و بدت تهون على حزني المصطنع .. وها أنا ذا مكتسبًا صفة ثالثة بعد الخيانة و الكذب فأنا الآن أصبحث ممثل بارع متحذلق يجيد التمثيل و الإصطناع بل و يسب الناس في غيبتهم تلك لعمري مصائب جمًا صبت فوق رأسي منذ المصيبة الأولى الكبرى ...

عشت أيامًا لم تفارقني فيها المرارة رغم هدوء نبرة الحزن قليلاً واستهلكت طرح مشكلة مرسي مع زينب زوجتي ، الحقيقة مرسي لم يكن يضايقنا إلى هذا الحد الذي يشعل فتيل الغضب ولكنه كان حقًا إنسانًا وقحًا سليط اللسان دائم التدخل فيما لا يعنيه و كونه زوجًا لابنة عمه الحاج رمضان وهي ابنته الوحيدة وبذلك أعطى نفسه الحق في التدخل و التحدث عن أملاك الحاج رمضان عمه وكأنها أملاكه وذاك ما جعل الحاج رمضان يكرهه ويقف له دومًا بالمرصاد ..

وأنفقت جزءًا كبيرًا من وقتي عاكفًا على التفكير في طريقة ما للخلاص من هذه السيدة التي هي بمثابة نقطة سوداء في حياتي ، وكأنها هي وحدها المسئولة عن ما حدث ، وجلست أفكر فيما سأفعل ، في المسجد المقابل للوكالة بعد الإنتهاء من صلاة الظهر لمحت الشيخ جادالكريم بالقرب مني فدنوت منه وسألته عن صديق لى وقع في إثم ولا يعرف سبيلا للخلاص ، فأوصاني بأن أبلغ هذا الصديق أن يبتعد عن المكان الذى وقع فيه هذا الإثم وذكرني بقصة الرجل الذي قتل مئة نفس وأوصاه الرجل الصالح وقتها بأن يترك بلدته ويذهب لبلدًا آخر.

وبعد سلاسل الكذب التي ألفتها في الآونة الاخيرة والتي انتهت بالكذب على الشيخ بإخباره أن سؤالي بخصوص صديق وليس لي أنا فأنا الرجل الناسك العابد المحترم .. فكذبت على نفسي وبادرت أفكر في كيفية إزاحة هذه السيدة من المكان رفعت سيف الحد وآثرت إقتلاع جذوتها من العمارة كلها وبذلك تنتهي المأساة .. هكذا ظننت وقتئذ ..

الحقيقة لم أكتف بالتفكير لكنني عكفت على التنفيذ وهداني شيطاني الذي لازمني طيلة الفترة الماضية إلى أن أبعث لها برسائل تحمل تهديدًا مباشرًا لها بدون ذكر اسمي طبعًا ..

وكتبت أول رسالة " أيتها الساقطة اللعينة لقد رأيتك و أنتِ تسقطين في الإثم و سأمهلك شهرًا كاملاً حتى تتدبرين أمرك وتتركين هذا الحي بأكمله حتى يطهر من الأنجاس أمثالك وإن لم تفعلي فسأخبر زوجك المسكين زكي أبو السعود الذي سافر لجلب المال لكي ولابنتك بينما أنتِ .. بينما أنتِ هنا تهرولي وراء شهواتك و تجلبين العار له ولحي الغورية الطاهر كله ، اهربي وإلا العاقبة ستكون أوخم مما تظنين " ..

أزحت الرسالة من أسفل عقب الباب ووليت مسرعًا ، انتظرت ردة فعل فلم تقع ، سمعت الباب يفتح ويغلق إثر رجوع إبنتها دعاء من المدرسة ، دعاء تزامل فاطمة ابنتي في الصف الرابع الإبتدائي .

بعد مرور أسبوع على الرسالة الأولى ألقيت بالثانية ... لم أجد أي ردة فعل .. وحقيقة لم أكن أعرف ما هي ردة الفعل التي يجب أن ألقاها خاصة و أنا أخفي اسم صاحب الرسائل المرسلة ... لقد عبثت الشياطين برأسي حتى فقدت القدرة على التعقل وصرت أكثر جنونًا مما كنت أظن ..

رميت بالرسالة الثالثة و سرعان ما أتبعتها ب الرابعة التي حشوتها بألفاظ نابية دأبت على اختيار أفظعها ، وقبل إنقضاء الشهر حدث ما رنوت إليه ..

وذات يوم إثر عودتي من الوكالة ، ضبطت فاطمة تبكي في حجر أمها، فسارعت الخطى إليها واحتضنتها و قبلت يديها و رأسها سائلاً إياها عن ما وقع لها ، فاخبرتني بأن صاحبتها دعاء لم تأت المدرسة منذ يومين و خلال اليومين والباب بالأسفل مغلق ولا أحد يرد ولا أحد يعرف أين ذهبت ...

مرت الأيام ثقيلة نائت نفسى عن حملها حتى زوجتي بدأت تتسائل أين ذهبت هذه المسكينة التي لم تر منها مكروهًا قط ، و كانت تشحذ منها الكلمات فهي صامتة في أغلب الأحيان ولا تجيب إلا إجابات مقتضبة وحتى زوجها منذ سافر قبيل أربع سنوات فائتة لم يعرف عنه شيئًا ..

الجيران أيضًا تسائلوا ، جارتها في الطابق الرابع السيدة تفيدة أرملة الأستاذ محسن عبدربه صعدت إلينا ذات مرة تسألنا عنها فأجبنا بأننا لا نعرف شيئًا وبدت السيدة متأثرة لغيابها أيما تآثر ، وطرقت مسامعي محاسنها طيلة اليوم إما من زوجتي أو ابنتي فاطمة أو الجيران ، وكأن الجميع اتفق على ذكر محاسنها التي لم أكن أتطرق لسماعها يومًا ..

شيئًا ما بداخلي اخذ يتنامى فكان كالمرض الخبيث ينتشر بداخلي ، يداهمني الأرق كل دقيقة و يقض القلق مضجعي ، وأصبحت حزينًا كئيبًا أكثر مما سبق ، فلم أجد للراحة سبيلاً خاصة و أنا السبب في كل ما حدث لهذه السيدة التي تنطق الألسنة الآن شهادة على نبلها و شرفها ..

واقسمت على نفسي بأن أصل لها ، و طفقت أبحث عنها في كل مكان مجاور لحي الغورية الذى يأوينا فدلفت لشارع الأزهر و ما يحويه و العتبة وحواريها وبت أتقصى أخبارها لعلي أجد خيطًا يدلني على الطريق ، حتى ألهمني الله الطريق و أبلغني عبده الشيال أنه رآها ذات يوم بحي الأزبكية فأنطلقت من فوري للمكان الذي وصفه لي وتعثرت كثيرًا حتى عثرت عليها ....

إنها المسكينة تسكن بداخل بدروم أرضي مكون من حجرة واحدة ضيقة لم أعرف مدى ضيقها إلا عندما انزلقت للداخل ، هي أوسع قليلاً من مقبرة بها مصباح وحيد معلق بإحدى زوايا الغرفة المقيتة و بالخارج حمام أضيق و أقذر من أن يسمى بيت الراحة ..

طرقت باب هذا القبو طلبًا للدخول فأذنت لي بعدما تعرفت على صوتي وظلت مندهشة يتخطفها الذهول و الريبة ومن ثم قابلتني بود و إحترام ونعتتني بالأستاذ وبدت متحفظة في كلامها وكأنها تناست الماضي كله ..

نظرت إليها متفحصًا وجهها لأول مرة عن كثب فإذا بي أجدها وقد اصفَّر عودها وشحب لونها وبدا الأرق و الوهن ظاهر بقوة عليها فجفنها أحمر ، وبشرتها منطفئة إلا أن تفرسي بوجهها اكتشفت أنها تحوذ على جمال طيب فهناك عينين ينطق العسل فيهما وملامحها دقيقة و بشرتها بيضاء ناصعة ، إلا أن فمها كبير بعض الشئ إلا أن رسمة شفتيها تؤهل الفم لأن يكون أجمل ما فبها برغم إتساعه ..

وبدأت في قتل الصمت الدائر بيننا بخنجر السؤال ، فتسائلت لماذا تركت المنزل و هجرتنا لتلق بنفسك في هذا الجحر المميت .. فلم تتمالك نفسها و العبرة التي تعلقت بعينها منذ النظرة الأولى انفجرت وبدت دمعات كثيرة تهم بالإنزلاق لتسكب بحيرة من الدموع .

ثم بدت تنتفض و هي تحكى قصتها المريرة وكيف كان زوجها يضربها و يهينها وكيف سافر نشدانًا للرزق ثم طلقها بعد فترة إنتظار دامت أربع سنوات ثم بعث لها بورقة طلاق منذ عام ونصف ..

بعدما تزوج من سيدة خليجية هناك فاغدقت عليه الأموال و هو الكسول الذي لا يحب العمل قط فكانت هذه فرصة سانحة له، رنا إليها بعدما كفته السؤال عن زوجته و ابنته فطلقني وقال لي يكفي إيجار المحل الذي تتقاضينه كل شهر، إن زوجي ورث عن أبيه دكان بحي الحسين يأتيني بإيجار بضعة جنيهات فقيرة كل شهر أدفع أكثر من نصفها لإيجار الشقة و الباقي أقتات به أنا و ابنتي ما يلزمنا ..

سألتها هل يترك فلذة كبده بهذه السهولة ؟

فعاودت البكاء مرة أخرى وقالت لقد كان يضربني بشكل يومي ، يضربني لأتفه الأسباب ، ودائمًا ما كان ينعتني بالمرأة الشؤم التي لم تفلح في شيء حتى في الإنجاب فانجبت له بنتًا لتورثه العار ولم يستطع رحمها القذر أن ينجب ولدًا يحمل اسمه ، كنت في نظره مجرد امرأة قذرة تجلس هكذا بدون عمل شيء سوى التنظير و إلقاء الأطروحات التي لا فائدة منها ، أنا خريجة جامعة فلقد حصلت على بكالوريوس التجارة من جامعة القاهرة ، بينما هو خريج دبلوم وفوق هذا بذئ اللسان ولم يلق حظًا من الثقافة والعلم ، فكان هذا يؤرقه جدًا ودائم السباب لأرباب الجامعات و لكل إقتراح أطرحه عليه لتحسين وضعنا المادي إلا أنه يردني خائبة في كل مرة فقد كان أشد الناس كسلاً .

إن هذا الرجل الذي تزوجته رغمًا عني لرفع مصاريف البيت عن كاهل أسرتي المسكينة التي تعتمد على معاش أبي الضئيل كي يقيهم جوع الأيام قدر المستطاع ..فإن أبي قد أصيب بعاهة أثناء تأدية عمله حيث كان يعمل عامل بناء خرسانة وسقط من علو شاهق فقد على إثر هذا الحادث قدرته على المشي فكتب عليه العجز إلى ما قدر له من عمر يحياه ، ووالدتي ترعاه و أخي الأصغر التحق بالجيش يؤدي خدمته الإجبارية الآن و يأمل في أن يجد فرصة للسفر تنقذه وتنقذ هذه الأسرة البائسة من قبضة القدر المستحكمة حولها ..

لماذا إذا لم تبلغي الناس بذلك فالكل يعرف أن زوجك ما زال مسافرًا ؟؟

أنني أخاف أن يبلغ الناس مثل هذا النبأ فلتعلم يا سيدي أن النظرة للمطلقة في مثل مجتمعاتنا تضعها موضع امرأة داعرة أو على أقل تقدير فريسة سهلة للجميع يمكن إقتناصها في أية لحظة وبأقل جهد وعناء ..

فندت عني آهة من الأعماق شعرت وكأنها سكاكين تمزق أوردتي ..

يا رباه أيكون الخطأ الوحيد الذي اقترفته بحياتي يقع مع مثل هذه ، هل أنا سيء الحظ إلى الحد الذي تلقى في مداري واحدة من البشر ممتلئة عن آخرها مآس وتجلد بسوط من بؤس بشكل يومي مثل هذه السيدة المسكينة .. يا رباه .. الرحمة العدل ، أنزل رحماتك علينا و امنحني فرصة للعودة إليك .. وهبني قدرًا كافيًا من الجرأة و الحكمة لأسير في عتمة دربي مهتديًا بحدسي و إيماني الراسخ بأن في نهاية الدرب يكمن قبس النورالمنتظر ..

ريثما أهيم في أفكارى المشوشة ، قاطعتني قائلة ثم حدث ما حدث بيننا والله أنا لم أخطئ طيلة حياتي ولا أعرف ما الذي جرى وكيف جرى بيننا هذا الشيء الفظيع ، ثم أتتني رسائل تهديد من إنسان لا يعرف الرحمة ولا أعرف من هو هذا الرجل الذي نعتني بأبشع الصفات و سبني كثيرًا وتوعدني في خطابات القاها من أسفل عتبة داري .. وجلست تردد في تشنج أنا لست عاهرة والله لم

ولن أكن عاهرة ، وعادت تبكي و تنتحب نحيبًا بلغ من القوة أن مزق فؤادي ألمًا وشعرت بالندم يسحقني سحقًا وكأني أنا ، نعم وحدي أنا السبب الرئيسي في جعل عالم هذه السيدة المسكينة أكثر بشاعة و ظلمة ..

هنا كان لزامًا عليّ أن أقف وقفة تدلل على مدى ما أحمله في جيناتي من رجولة وما يمرق في طينتي من رحمة و آدمية ، فكففت أدمعها و أقتربت منها و همست لها قائلاً .. دعيني أعترف لك ،فقد آن أوان الأعتراف بشئ ..أنه أنا يا سيدتي من بعث إليك بالخطابات الأربعة ، أنا دون غيري .. أنا الوغد الذي هداه شيطانه لمثل هذه الحيلة القذرة ، فنظرت لي بعين منكسرة تطفح ألمًا وتذرف دموع الحسرة و الخيبة وقالت أنت ؟ .. لماذا فعلت بي كل هذا و أنا لم أشا أن أجر لك شرًا في يوم من الأيام ؟

فلم أستطع القبض على نفسي أكثر من هذا فانفجرت باكيًا أنا الآخر وظل صدري يرتفع وينخفض بشدة قلبي يكاد يقفز من كثرة إرتجافي ، بكيت إلى الحد الذي لم أعهده في نفسي أن بكيت هكذا ذات يوم ، فمالت المسكينة عليّ ونحن جلوس تكفكف أدمعي و مسحت براحة يدها الرقيقة فوق رأسي وتخللت أصابع يديها الحانية شعري وطفقت تهدهدني و تهون عليّ فاقتربت منها حتى لامس جسدي جسدها وبتنا في حكم المتعانقين ، عناقًا ليس كمثل أي عناق آخر .. عناق من نوع خاص لا يحمل في طياته خبث ولا شهوة ..

ثم وقع بيننا ما يقع عادة بين اثنين في مثل حالتنا هذه ، يخيل إليّ أنني ضاجعتها في هذه اللحظة ، الحقيقة أننا كنا في عالم آخر فقد كان كلانا يشعر بالوحدة و الظلم وكان إقترابنا من بعضنا البعض وكأنه يضمد جراح العمر و يرد إلينا مظلمتنا من هذه الحياة .. كان إقترابي منها ليس كالمرة السابقة ولكن كنا نشعر وكأننا نمنا سويًا نومة متزوجان ، ولم يكن لي حاجة من نيران شهوة لأطفئها معها وبها ، ولكن بدا الأمر لي على هذا النحو فإنني بسطت راحتي إليها لتحنو عليها و ذراعين انفرجا ليتلقفا حزنها .. وأما عن شفتي فقد انحنت

على جبينها لا لأقبلها قبلة عاشقة ولكن لأهبها قدرًا من كرامة و إجلال تستحقه ، شيئًا ما جذبنا لبعضنا البعض في مثل هذه اللحظة فهناك أوقات لا يمكنك السيطرة فيها على جوارحك بعدما تبارح خضوعها لسيطرة العقل وتملك الجوارح حريتها في التصرف دونما الرجوع إلى حاكم الجسد ، أحيانًا كل ما تريد أن تمنحه لغيرك لحظة مثل هذه اللحظة لتؤكد له أنك معه وبجانبه منذ اللحظة وحتى إكتمال دفتر العمر ..

أقف الآن على المشكلة التي اشتعلت جذوتها إبان الوقوع في الإثم ، هي خيانة لا محال إذا ، لكنني لن أتركها هكذا قبيحة بل سأجملها .. نعم سأجمل خيانتي ،و سأنظف إثمي بيدي .. فإن كنت خائنًا حقًا فهذا لا يعني أن أبق غير نظيف ، سأهب خيانتي مسحة من جمال يزين القبح الملازم لمثيلاتها .

المشكلة واضحة والحل واحد ولا فرار منه فأنا لا يمكنني الهرب من المواجهة محال أن افكر في شئ كهذا .. ولكن إن كان لابد من التفكير فليكن إذًا التفكير في الحل .. أو بمعنى أدق التفكير في كيفية الوصول لهذا الحال الماثل أمامي والوقوف على بابه.

بالطبع ليس هذا فضلاً مني ولكنه أمرًا لا مناص منه ، المشكلة الآن واضحة كالشمس في كبد السماء فهي بالبداية مشكلة إقتصادية بالدرجة الأولى ، متى حلت هذه المشكلة تحل جميع المشكلات وينفرط عقدها تباعا و تندثر حباته في بالوعات النسيان ..

هناك مشكلة أخرى ، وهي زوجتي زينب فهي الأخرى مسكينة لا تبال بما فعلت وبما أضمر في نفسي ، رباه ها أنا ذا أوقعت بنفسي في شَرَك أشعر و أنه قدر تم إقتيادي إليه ، ليتني كنت من أولائك الذين لا يبالون بذنوب يقترفوها أو أخطاء يقعون فيها طواعية .. أعوذ بالله أن أكون مثلهم ، لا لا لن أكون ولن تنأى عظامي عن حمل هذا الثقل الملقى على ظهري ، ولتمد يا رباه يد العون

لـي ولتهبنـى مددًا مـن عنـدك يقويني علـى مـا أنـا مقبـل عليـه مـن منحنيـات لـم أعهدها طيلة حياتي التي اتسمت بالهدوء و الرتابة ..

تحدثت مع إحسان بشيء من الجد و الحزم فلا مجال هنا للرجوع خطوة واحدة للوراء ..

-لابد أن نتزوج يا إحسان ؟

- لا أجبرك على شيء فأنتَ متزوج يا أستاذ حسن .

- أستاذ ؟ .. عيب عليك أن تنادي زوجك المستقبلي بأستاذ ثم تأكدي من أنه لا يجبر أحد على الزواج من يريد الزواج يتزوج بمشيئته و بإختياره هو ومن لا يريد لن يجبره أحد عليه..

- هل تقبل الزواج إذا من مطلقة وحيدة مثلي من عائلة معدمة ؟

- ومن قال لك أنني سليل عائلة لاظوغلي باشا ، أنا من صراصير المجتمع ولكني على كل حال صرصار طيب لا يؤذى أحد ولا يهرب من المسئولية ..

رفضت رفضًا قاطعًا وبكت قائلة اذهب واتركني فأنا لن أضيف لحياتك شيء بل سأثقل كاهلك بمشكلات مع زوجتك و نفقة تفوق راتبك .. ولما أصررت أنا و علا صوتي وأنا ممسك بذراعها أهزها وأقول لها أنتِ لستى مخيرة في هذا الأمر فلا سبيل أمامنا إلا الزواج.. فقالت لي أشترط أن تذهب لتخطبني من أهلي .. هل هذا ممكن ؟

هل تستطيع فعلها ؟

أنا أعلم أنها طلبت طلبًا خيل لها أنه تعجيزي .. لكن كان لدي من الإصرار و العزيمة أن لو طلبت أن أسير في الشارع لأخبر الجميع من أنني أريد الزواج منها لفعلت دون تردد ، قبلت إذا شرطها التافه وقلت لها أعطيني العنوان و

غدًا ألقاك هناك .. فانبسطت أساريرها وجرت علي احتضنتني و هي تبكي بكاء فرحة ربما لم تخالجها منذ أعوام كثيرة ..

وضح الطريق إذا رغم عتمته و عثراته التي تختبئ في الظلام ، وطفقنا نستهل شعاع أمل يبزغ في سمائنا فيهبنا قبسا من نور نصطلي به ، فقالت إحسان يجب علينا الآن أن نفكر في طريقة مناسبة لإعلان زواجنا ولكن قبل ذلك خبرني من أين سنتدبر المال اللازم للقادم من الأيام ، وما موقف زوجتك أنها سيدة طيبة خلوقة ولا أعرف كيف ستقابل الأمر وكيف لي بالنظر في عينها بعدئذ ؟

قلت لها الوقت تأخر فلنؤجل الحديث فأمامنا خطبة غدًا ورفضت مبيتها في هذا المكان الموحش ولملمت معها أشيائها و اصطحبتها للخارج ، وبالخارج اخبرتني بأن أبويها يسكنان بحي الشرابية فأشرت لحوذى كان يقف على مقربة منا يسقى جواده فأومأ لي بالموافقة ولما فرغ من سقى حصانه ركبنا معه ومن ثم إنطلق مسرعًا لحي الشرابية وهناك انزلت إحسان و دعاء ابنتها عند مسكن أهلها ورجعت في نفس العربة إلى حي الغورية ، ولما وصل الحوذى لملتقى الغورية مع شارع الأزهر ناديت عليه بالوقوف ، فتركته وفضلت السير على قدمي إلى منتصف الغورية عند مسكني ، آلاف الأفكار تناطح رأسي ، ماذا فعلت بنفسك يا مجنون ؟

دلفت لداخل شقتي كانت عقارب الساعة تلدغ التاسعة مساءًا وهو ما يعني أن البيت يخيم عليه شبح النوم بجناحيه الثقيلين ، نمت والأفكار بداخل رأسي تصارع بعضها البعض ..

في اليوم التالي أنهيت عملي في الوكالة في تمام الرابعة و النصف متعللاً بتعب و إرهاق اصابني ، ومن ثم انطلقت من فوري إلى الشرابية وهناك دلفت لبيت أهل إحسان ، البيت حقيقة متواضع جدًا و العفش أكثر تواضعًا على رغم ما بالبيت من نظافة و نظام استحدث للتو ...

حال البيت يبعث على الرثاء ، الأم و الأب يرفلان في ثياب بسيطة .. الأب جالس على كرسيه المتحرك سلمت عليه فبادلني التحية بقلب يفيض بالغبطة و السرور ، اخبرني بكل شئ تقريبًا بداية من اسمه سيد العتال مرورًا بعمله وشبابه الذائب في بحور الماضي و الحادثة و البيت و الابن الذي سافر للخارج و الآمال المتشدقة به ، تناوبنا الحديث و تمت الخطبة البسيطة و نزلت من البيت يمازجني شعور بالفرحة و الإرتياح كلما تذكرت أنني وفيت بجزء من وعدي و أنني وفقت في إختياري بالوقوف بجانب هذه المسكينة وتحققي أيضًا من فقر والديها كما حكت لي ، إن هذا ليس فقرًا عاديًا بل إنه الفاقة نفسها ، بينما أختال فرحًا تنتابني لحظات الحزن المارقة كلما تذكرت زينب .. و مثل زينب لا ينسى ، فما بيني وبين زينب حبًا و عشرة طويلة و بنتًا جميلةً هي نتاج ذلك الحب ، أما ما بيني وبين إحسان شيئًا ربما أقل قليلاً و ربما أكثر من كونه حب ، إن بيني وبينها وعد بأن أقف بجانبها ، وبيني وبين نفسي وعد بأن أجمل خطأي ..

عدت للبيت متأخرًا بعض الشيء على غير عادتي ، لاحظت زينب عليّ بعض التغييرات لكني و بحجة بسيطة من تلك الحجج التي ألفتها في الأيام الأخيرة استطاعت زينب أن تصدقني بعدما وضعت العشاء أمامي وذهبت للنوم بجانب فاطمة ..

جلست أتناول عشائي بشهية قوية ونهم شديد ، وبعده صنعت لنفسي كوبًا من الشاي و لا أعرف لماذا خطر في ذهني أنني لم أمارس حقي في المعاشرة الزوجية منذ ما يقرب من شهرين كاملين وآخر مرة حدث ذلك كانت تسبقه مدة مماثلة تقريبًا و تذكرت أنني ظللت وقتئذ أسبوعًا كاملا ألمح بل و أطلب ذلك صراحًة حتى نلته ومثل هذه الأشياء لا تطلب ففي طلبها شئ من إهانة و تبديدًا لمذاقها وتشويها لصورتها الجميلة ..

وهممت بالدخول لغرفة فاطمة لأنادي على زينب و أناقشها في هذا الأمر و ربما أصرخ في وجهها و أتهمها بالبرود و الإهمال .. وبدأت أسرد بيني و بين نفسي مساوئ و أخطاء كثيرة وقعت بها زينب معي خاصة في إهمالها الواضح ..

ولكني سرعان ما أفقت وقلت لنفسي يا ويحي .. يا لي من وغد كبير ، أبحث عن كل ما يؤخذ على المسكينة متناسيًا كل ما صنعته من أجلي ، كل الحب الذي بادلتني إياه ذهب أدراج الرياح ، كل المتاعب التي عانتها بجواري كل اللحظات التعيسة التي وقفت فيها بجانبي ذهبت سُدى .. يا للرجل من وغد حقير حين يريد البحث عن مخرج لأفعاله الهوجاء يبادر بتأليف الحجج و استدعاء كافة المشكلات التي وقعت من لدن آدم ويرمي بها فوق طاولة الحديث ليقنع نفسه بفعلته ...

مرت الأيام و أنا لا يهدأ لي بال ، شارد اللب دائمًا ، قلق ، متأرجح بين الواقع و الخيال الجامح..

في هذه الآونة أتفقت أنا و إحسان على عقد قراننا وها قد حدث وكتب لنا مأذون الحي الشيخ عبدالعزيز البنجى وأوصيته بالكتمان فوعدني بذلك ، رتبنا أمورنا و قررنا عودة إحسان و بالفعل عادت إلى شقتها مرة أخرى ، رحب بها الجميع وأبلغتهم أنها كانت في زيارة خاطفة لأهلها بالشرابية ،

عادت لها الإبتسامة ولكنها إبتسامة قلقة تتأرجح بين الواقع و المأمول ..

استطاعت إحسان أن تعمق العلاقة بينها و بين زينب بشكل سريع ساعدها في ذلك استعداد زينب لتقبل هذه العلاقة منذ البداية ، حتى أصبحا أصدقاء ودبت أواصر المحبة بينهما ، وفتح البيتين على بعضهما وهذا كله كان في صالحي فمنحتني هذه العلاقة طوق نجاة لعلاقتي الخفية بإحسان ، و من ثم انفتح باب

الحرية أمامي على مصراعيه ، رغم أنني لم أتنازل عن الحذر قيد أنملة و العجيبة أن زينب لم تلاحظ شيئًا ..

مرت الأيام متقلبة كعادتها تارة حلوة عذب مذاقها و تارة أخرى مرة تقطر حنقًا و عذابًا ..

و أطلت الأزمة الإقتصادية برأسها فلم يعد يكفي المرتب الشهري أسرتين ، الحقيقة إن مرتبي كان بالكاد يكفينا أنا و زينب و فاطمة إبنتنا ، والحقيقة أيضًا إن إحسان لم تطلب مني شيئًا فقد عكفت على تدبير أمورها كما كانت تفعل قبل أن آتي أنا فإيجار المحل كانت تتدبر به أمورها ، ولكني أبيت إلا و أن أعدل بينهما فكنت أحاول أن أعوض إحسان كلما سنحت لي الفرصة فأهبها ما أهبه لزينب ...

وضقت ذرعًا بالوضع القائم فأنا أشعر بمدى ظلمي لإحسان فأنا لا أجلس معها فكان زواج مع إيقاف التنفيذ اللهم إلا لحظات نختلسها من الزمن كل حين ، كما أني أشعر بخيانة أخرى لزينب إذ لم أعلمها حتى الآن ، ، كما أيضًا أشعر بمدى ظلمي لنفسي .. كل هذا دفعني لأن ألتقي بإحسان خارج البيت وجلسنا بالقرب من ميدان الأوبرا و أخبرتها أنني ما عدت أطيق هذا الوضع ولسوف أعلم الجميع بزواجنا وليحدث ما يحدث ..

فحذرتني من هذا ، وقالت في خضم الأحداث الجارية نسينا مشكلتنا الأولى والحل واضح ولكني خشيت أن أبلغك به ..

- أي حل تقصدين ؟

-يمكنك أن تأخذ الدكان أنت و تضع به بعض أنواع البضاعة من أقمشة وخلافه و تتاجر مثل الحاج رمضان .

- نعم ! هل تقصدين أن أترك الحاج رمضان الرجل الذي أدين له بكل شيء .؟

- لا أقول لك أترك الحاج رمضان ، ولكني أحرضك على أن تجد نفسك.

- أنا في الأربعين الآن .

-وهل يبلغ المرء أشده وينضج إلا بعد الأربعون ؟ لو كنت صغيرًا ما تزوجتك !

- ولكن الحاج رمضان من الممكن أن يشعر بالضيق و يلقي باللوم عليّ إذ أنا تركته ؟

-وقتها ستعلم هل هو يحبك فعلاً لشخصك أم أنه مجرد إنتهازي يحب أن ير فيك خادم لا يخرج عن طوع سيده .

- المغامرة ؟

-ألم تقرأ يومًا و يفوز باللذات كل مغامر .. ؟

أين لي بالبضاعة و الأموال فأنا لا أملك شيئًا ؟

-فلتلعب غير هذا اللعبة ، فلست أنا ببلهاء لأصدق أن أمرًا مثل هذا يستعصي عليك وأنت من يدير كل شيء في وكالة الحاج رمضان ويتعامل مع الكافة و يعرف حقيقة من أين تؤكل الكتف في هذا المجال ، بل ويعرف أيضًا من أين يحصل على هذه الكتف ..

- الأمر يحتاج إلى دراسة ؟

- الأمر لا يحتاج إلا الجرأة ومن ثم الشروع في التنفيذ .

- حسنًا ، دعيني أتدبر أمري لعلي أصل إلى طريقة ما لإخبار الرجل ومن ثم أفكر في من سيمدني بالأقمشة فالأمر جد مكلف .

- لك يوم تفكر فيه في طريقة وإن لم تجد فهناك طريقة مثلي وهي أن تذهب إليه وتقول " ها أنا ذا أريد أن أعمل لحسابي وقد استأجرت دكان صغير و أحتاج منك أن تقف بجانبي بحق كل خير بيننا و أرجو أن لا تخيب ظني "... و بناءًا على رده يأتي كل شيء تباعًا .

مر اليوم و في اليوم التالي ترددت ، وسألتني إحسان فتهربت منها و مرت أيام أخرى إلى أن تملك الأمر من رأسي ، وفي صباح يوم باهر استفزني كعادته مرسي ابن أخ الحاج رمضان فزاد من حنقي عليه و على المكان برمته وضقت ذرعًا بكل شيء و ذهب مرسي و دخلت أنا من فوري لمكتب الحاج و أنا مغتاظ أقطر غضبًا ، و أبلغته بما فعله هذا السفيه ، فأجلسني و قال لي أنتَ متعبٌ و هائجٌ بما يكفي و أجد عليك تغيرات هذه الأيام أفصح لي عما بداخلك ، فأخبرته الحقيقة كاملة ... فلم يجبني بشيء وبدا وجهه محمر يداري غضبته، و من ثم قال لي لو أردت زيادة في أجرك زدتك ولو محتاج أي شيء تحت أمرك ولكن نؤجل هذا الأمر قليلاً ، فشعرت بخذلان رهيب يجتاح جوارحي و سمعت صليل كلمات إحسان ترن في أذني " وقتها ستعلم هل هو يحبك فعلاً لشخصك أم أنه مجرد إنتهازي يحب أن ير فيك خادم لا يخرج عن طوع سيده " .. ها أنا ذا مجرد خادم ولست ابنا له كما كان يتغنى بذلك ليل نهار ، ها أنا ذا مجرد كلب يلهث طول اليوم كي يرمي في جعبته فتات وكسرات خبز يأكلها هو و عياله أما الأموال و الذهب و العربات و البيوت الفاخرة و الكروش العامرة فهي من نصيب الحاج رمضان و زوجته و ابنته و مرسي التافه الذي يأكل من كدنا ..

تركته وخرجت و أنا أقرب للموت منه للحياة ، الخذلان شيء رهيب يدمي القلب و يمزق أواصر المحبة تمزيقًا لا ترتق بعدها مرة أخرى و لا يرقع ثوبها شيء ..

حسنًا احتدم الأمر و ازددت حنقا وودت لو كان لي من الجرأة و الإقدام وأن قمت بحرق الوكالة بأسرها بقماشها بعامليها بالحاج رمضان نفسه .. حسنًا سأريك أيها العجوز المتعفن .

لم أنم ليلتها و دلفت فجرًا للشارع أديت الفرض ، و حملت أحلامي فوق ظهري و طفت المعمورة كلها أتدبر أموري مع المصانع و العمال أصحاب الحرف و الإنتاج اليدوي وأخبرتهم بأنني أنتوي العمل لحسابي، الحقيقة إنهم كانوا ألطف ممن عملت معه عشرون عامًا، وبادروا بمدِّي بكل ما تحتاج إليه تجارتي الوليدة .. التقطت مفتاح الدكان من يد إحسان التي كانت أنجز مني في إتخاذ القرار فبادرت بأنهاء التعاقد مع من كان يؤجره ويستخدمه مخزنًا للغلال .. التقطت المفتاح وذهبت للدكان وكلي عزيمة و إصرار و فتحته فوجدته واسعًا ومن الممكن استخدامه لتجارة الأقمشة وانشرح صدرى له رغم ما به من قاذورات تركها المستأجر القديم ، فقد كانت عناقيد العنكبوت تتدلي من كل موضع في السقف وكأنهم مشكاوات ، و الحوائط بها بعض من شقوق يمرق منها و إليها حشرات صغيرة و الأرضية ملك خالص للصراصير وربثما أتأمل المنظر الفوضوي ، أبى فأر صغير أن أكتفي بما أشاهد فأندفع من بين قدمي على حين غرة حتى كدت أقع على ظهري من هول المفاجأة ، وأخذ يجري في الأنحاء محدثًا صوتًا مزعجًا ، فابتسمتُ وقلت الفأر يجري في هذه الحياة أسرع مني ، فلأبادر بالجري أكثر فلم يبق بالعمر كثير .

خلعت عني ثيابي وبدأت أكنس المكان و أنظفه فخلفت ورائي أكوامًا كبيرة من القاذورات و المهملات و أكياسًا فارغة .. لا أعلم من أين لي بهذه العزيمة فهبت في أعماقي رياح ثورة جامحة و دبت في نفسي عزيمة قوية أقوى مما كنت أتخيل أن تكمن بداخلي .. رجعت ليلتها أجر قدمي جرًا ؛ فنمت نومة متعب ثمل بأحلام الغد و تحدياته .. و في صباح اليوم التالي تحدثت مع زينب فانزعجت انزعاجًا قويا و كالت الهموم فوق رأسي وتسائلت عن ماذا حدث لتقلب حياتنا هكذا رأسًا على عقب ، وتجاذبنا أطراف الحديث الذي علا

ضجيجه و احتد و الحقيقة أنني لاقيت معاناة و تعب مع زينب أكثر مما لاقيت خلال اليومين السابقين .. فانزلقت للخارج وأنا أضمر في نفسي حنقًا وغضبًا، كئيب المزاج . تطفح نفسي كمدا فما كنت أتوقع منها أن تلاقيني بهذا الوجه ، وألقيت بنفسي في أمواج الشارع فجرفني تياره إلى حي الحسين وساقتني قدماى إلى مسجد ابن بنت رسول الله طرقت باب الرجاء وألقيت بهمومي على عتبة بابه و وقفت أمامه يلجمني صمتي و لا أعرف كيف أحكي ما يجول بداخلي من خيانة اقترفتها ومن ذنب يطأ رأسي في كل سجدة فيشتت على لحظات خشوعي ومن وضع مستجد ومن سوء معاملة من أحسنت به كل الظنون ومن زوجة تدفعني للأمام و أخرى تدفعني إلى الأرض .

ريثما أهيم متخبطًا في ما آلت إليه دنياي ، دنا مني رجل قصير القامة نحيل الجسد أسمر الوجه وله عينين حالمتين و تبدو عليه آيات الطيبة فمد يده فمددت له يدى وسلمنا على بعضنا ومضى يحدثني وهو يضع راحة يده الصغيرة على كتفي يربت عليه ريثما يقول لي كلمات طيبة ، رفقًا بنفسك يا بني فلا تقتل نفسك تفكيرًا و حزنًا

سلم أمرك لله و امض فيما أنت ماض فيه وليكلأك الله برعايته .

غاص قلبي في طمأنينة هادئة أثلجته فأغمضت عيني للحظة أستشعر فيها وقع الأمان في صدري الذي أزاح عني كومة الأحزان وما أن فتحت عيني حتى أشكر الرجل فلم أجده تلفت حولي فوجدته وقد ذاب في زمرة الحاضرين ...

خرجت من المسجد وقد ذابت أحزاني توجهت للمكان الذي أنتوي أن أبدأ فيه حياتي الجديدة .. وأجرت عربة كارو و حملت أكوام القمامة التي كاومتها بالأمس و ذهب بها الرجل.. وعكفت على ترتيب المكان و فرشه زارتني في منتصف اليوم إحسان وحثتني على العمل و نفثت في روحي عزيمة تقتلع أوتاد الجبال ..

انقضى أسبوع بأكمله و أنا أنظف و أهيئ و أعيد ترتيب كل شئ في المكان حتى استقبلت بضاعتى في بداية الاسبوع الثاني ، صدقني أصدقاء الأمس بما عاهدوني عليه وكما هو متفق بعثوا لي بالأقمشة التي أحتاج لها ، بل و زادني المعلم حسنين قورة صاحب المصانع الكبرى بالمحلة بأكثر من حاجتي بل زادني بإثنين من عماله للعمل معي و انضم لي أبو سمرة صديقي الذي كان يعمل معى في وكالة الحاج رمضان طيلة خمس سنوات فائتة فلم يطق العمل بعد تركي له ، خاصة مع تعرض مرسي له وللعاملين أكثر من مرة .

في هذه الآونة تجنبت الحديث مع زينب كي أصب تركيزي على عملي، آثرت الإنتظار حتى أقطف أول ثمرة للنجاح ومن ثمَّ أفاتحها في كل شئ ، لم تطلب مني إحسان ذلك صراحة ولكني لم أكن بحاجة لأحقق لها ما تأمله قبل أن تطلبه ، وقعت أسيرًا لأفكار تنضح بالحيرة ، إلا أن العمل كان خير ملهيًا ، وجاء اليوم الذى رفعت فيه لافتة كتبها خطاط رائع وأصبحت أنا أملك وكالة الآن اسميتها " وكالة الأمانة لصاحبها الحاج "حسن البغدادي " ..

نعم هي صغيرة بعض الشئ لكنها على كل حال تحوي جميع أنواع الأقمشة التي تحملها الوكالات من قطن وكتان وصوف حتى التل والكشمير والأنواع الغير منتشرة أوجدتها و استأجرت مخزن بالقرب مني ساعدني كثيرًا على إيجاد أماكن كثيرة في وكالتي الصغيرة ، وكأني في حرب ولا مناص من الإنتصار على الظروف و على الحاج رمضان و على زوجتي زينب و قبل كل شئ الإنتصار على نفسي التي دأبت الرتابة و الخنوع وما عرفت المغامرة قط .. فليكتب الإنتصار تاريخًا جديدًا لاستعادة ما فني من أيام في العمر الأول ..

بدأت في جني أموال و زادت تجارتي بمرور الوقت بعد تعثرات وإنكسارات لا تسلم منها تجارة ، لكني بعون الله استطعت أن أجذب الزبائن للوكالة الصغيرة فاتكأت على حرفتي التي اكتشفت في ساحة المعركة قوتها فلم أكن

أقف على حقيقة أنني قادر على فعل شئ غير إعتيادي و أغدقت على العاملون معي حبًا و أموالاً فلم يضنوا على بجهد فكان هذا إضافة للوكالة كما أن أبو سمرة عمد على جذب الزبائن القدامى .. الفضل كله يرجع بالضرورة بعد الله إلى إحسان . فلم يشر عليّ أحد بمثل ما أشارت هي و لم يدفعني أحد للأمام بمثل ما دفعتنى هي و لولاها ما كنت أعرف إلى أي جهة كانت تسير حياتي ، مؤكد كنت سأبقى راقدًا في بركتي الراكدة غارقًا في بؤس لزج راض بالعدم متخيل أن هذا إيمان راسخ ..

الإعتراف بالخطيئة عادة ما يكون أصعب شيء على المخطئ ، ولكن عندما نجمل هذه الخطيئة محاولين إصلاح ما أفسدته نجدها وقد أصلحت من حالنا نحن و غيرت كثيرًا في طباعنا التي جبلنا عليها فنعود عودة مغايرة بغير ما كنا عليه قبل أن نقع فيها، هنا تصبح هذه الخطيئة مصدر فخر وإعتزاز تتغير على إثرها دفة المشاعر و الكلمات ، منحتني إحسان قوة خارقة استطعت من خلالها أن أقف بمنتهى الثبات أمام زوجتي و أنا غير آبه بالعواقب و بشئ من عزيمة و ثقة حقيقيين ، و أنا أعلم مدى صعوبة هذا اللقاء المرتقب الذي يرجح أن تلتقي فيه العينين أيما إلتقاء و أنا واثق من الإنفعال و الصراخ و ربما البكاء المرير ، فليس هناك امرأة ترضى بأن تكون لها شريكة في زوجها إلا امرأة لها قلب من ثلج ونفس بلهاء ..

أشرت لها وقلت أريد أن أخبرك بشئ هام يا زينب ، فانتبهت لى ملقية بسمعها و قلبها على عتبة فمي .

لتعلمى أني أحبك ولم ولن يحيد قلبى عن حبك إلى ما قدر لي من عمر أحياه يا زينب ..

-أعرف ذلك جيدًا ولكن لا أعرف لماذا تكرره اليوم ؟

للتأكيد فقط ..

ما الشيء إذا الذي تريد إخبارى به ؟

ما رأيك بإحسان جارتنا ؟

سيدة فاضلة أشعر وكأنها أخت لي لا جارة وحسب ؟

حسنًا ها أنت ذا حكمتي عليها .. إن هذه السيدة الفاضلة في الحقيقة هي زوجتي منذ عدة أشهر ومن يومها و أنا أنتهز الفرصة لإخبارك حتى سنحت اليوم لي فقررت إخبارك .

وكما توقعت هاجت زينب و بكت ونعتتني بالخائن و ألقت على تهمًا كثيرة و استدعت كل الخلافات القديمة التي وقعت بيننا حتى التي لم أكن أنا طرفًا فيها ووضعتها على الطاولة ، شعرت بكمد وضيق شديد ولولا تقديري لحالتها لطلقتها على الفور بعد كم السباب الهائل الذي القت به علي .. ولم تراع أن هذا حقي كزوج حق كفله لي الدين قبل كل شئ ، ولكنها ابت وقالت ها هو الدين الذي لا تعرفون منه معاشر الرجال غير هذا الأمر ، تركتم كل شئ و تمسكتم بالزواج مرة ثانية وربما ثالثة ورابعة وكأننا كلاب لا مشاعر لدينا ..

أوجعني أسلوب زينب وأنا الذي لم أعهد فيها هذا الأسلوب طيلة فترة الزواج .. حاولت تهدئتها فلم تصغ إلي .

مضت ليلة كئيبة على البيت .. ذهبت للعمل فجرًا فلم أعد أطيق المكوث في بيتي الذى أضحى جحيمًا ، استقبلت يومي طائش اللب ، متخبطًا بين الحزن تارة و القرف تارة أخرى ، فنصحني أبو سمرة أن أذهب للحسين أصلي الظهر هناك و أجلس في ضيافته لعل صدري ينفرج و يزول ما رآن على القلب من هم .. ذهبت وفي طريقى لمحت وكالة الحاج رمضان مغلقة فدفعني الفضول للسؤال فعلمت أنه طريح الفراش ، وعملا بالأصول ذهبت لزيارته ، استقبلني الرجل إستقبالاً كريمًا و فرح بزيارتي وقال كنت أنتظر هذه الزيارة لماذا تأخرت عني ؟

فأقسمت لـه أننـي لـم أكـن أعلـم إلا الآن ، فـأبلغني بمـا حـدث مـن سـرقة ونـهـب لوكالته بعد أن تركته وقال لي إنني لم أعارضك في العمل لحسابك بل إنني عز علـى نفسـي أن تتركنـي ، شـعرت بحـزن عميـق وأنـت تلقـي علـى هـذا الخبـر فباغتتني الصدمة و لم أستطع أن أتدبر أمري أو أقف بجانبك كما وقفت بجـانبي و فنيت عمرًا في خدمة الوكالة فبنيتها حجرًا حجرًا معي ..

ثم ابلغني أنه اتخذ قرارًا بأن أشاركه في الوكالة مناصفة ، فإن مرسـي يتربص بالوكالة و يخاف أن يضيعها ويضيع زوجته و ابنتـه فهو سكير عربيد لم يفلح في شيء قط ويعيش عالة على كل من بجعبته مال .

لم أستطع أن أبدي رأيًا فقد كـان الحـاج متخذًا كافـة الإجـراءات ومخبرًا بـذلك زوجته وحضر محام وكتب العقد و هكذا وضع حجرًا ثقيلاً آخر فوق صـدري .. ولم أجد آذانًا صاغية لي إلا إحسان فأصغت و هدأت من روعي ..

وبعد أيام قلائل مات الحاج رمضان فكأنه كـان يعلم تمـام العلم أنـه فـي لحظاتـه الأخيـرة .. شـيعته بقلـب يفيض بـالحزن .. ولوحظـت الفرحـة و الارتيـاح علـى وجه مرسي ، الذي لم يتوان في إثبات سوء نيتـه فعمد بعد أيـام قليلـة مـن مـوت عمه على فتح الوكالة بل وعرضـها للبيع ولم تفلـح توسـلات زوجتـه و أمهـا فـي أن تثنيه عن فعلته ،

زارتني في دكانتي المتواضعة السيدة عفـاف زوجـة المرحـوم لتذكرني بعهدي مع زوجها الذي وجب تنفيذه الآن قبل فوات الآوان ..

وبالفعل تدخلت في الوقت المناسب و نحيت مرسي جانبًا وألقيت عليـه الصـدمة فلم يستطع الرد وطفق يشتم ويسب عمه ناعتًـا إيـاه بـالمجنون أن كـان فعـل ذلـك واتهمنـي بالنصـب والكـذب .. ولكـن العقـود أثبتـت صـدق كلامـي و أعـدت فتـح الوكالة ، تغيرت طبـاعي كثيـرًا وصـرت أكثـر حـدة ممـا كنـت عليـه قبـل ذلـك ،

وبت أكثر إنشغالاً بالوكالتين و الضغوط المترامية على أكتافي ، حتى سقطت ذات يوم مغشيًا علي فحملوني للبيت ، وجاء الحكيم ونصحني بالتداوي بالراحة وبعض الأعشاب ..

لم يسكت مرسي عنى بل عرف خبر زواجي فاستدعى أساليبه القذرة و بعث إلى زكي أبو السعود زوج إحسان الأول ببرقيات تخبره بما جرى ووضح أن الفاشلين كانا على علاقة قديمة كان الفشل و السفالة و الإنحطاط روابط لهذه العلاقة ..

جاء هذا الكسول الفاشل زكي و تجرأ على طرق بيت إحسان التي لم تفتح له حال علمها به فازداد هياجه وخرج السكان ينهرونه على صوته وسبابه وقال هذه زوجتي ولا أحد يتدخل بيننا إلى أن نزلت له زينب فسبته و أهانته وقالت له أنت طلقتها منذ أعوام وهي الآن زوجة الحاج حسن البغدادي ، ولما لم يرد الذهاب أمرتها زينب أن تفتح الباب ولا تخف ومن ثم جعلتها تصعد للطابق العلوى وادخلتها بيتها هي و ابنتها و أغلقت الباب وتحدته أيما تحدي ..

الأصل هو كل شيء ولا تقدم على هكذا فعلة إلا من نبتت في بيئة منغمسة في الأصول و تربت على الوقوف بجانب المظلوم ولو كان عدوًا ..

موقف زينب هذا أعظمها في نظري أكثر ، و زادت على ذلك بأنها أبت أن تتركنا إحسان وقالت فلنعيش سويًا بأمان هذا أفضل ..

تعافيت تمامًا من مرضي و ازددت قوة على قوتي لأقف في وجه من ينغصون علينا حياتنا..

تمثلت المشكلة الأولى مع مرسي فجلست معه و أغريته بالمال ولم أعطه المال إلا بعدما وقع لي كمبيالات بالمبالغ التي تقاضها ..

والمشكلة الأخرى كانت مع زكي فدعيته أيضًا للوكالة فآتاني وقال أريد دكانتي و ابنتي لا حاجة لي في شئ آخر ..

وبعد أحاديث طوال عرفت أنه أتى أجازة قصيرة ولابد له من العودة قبل أن تنتهي تأشيرته ، فمكثت أماطله و أطول المدة حتى كانت آخر آيامه فأشتريت منه دكانته بثمن بخس و زدته فوقه أموال أخرى مقابل محضر تنازل فيه عن حقه في الإحتفاظ بابنته دعاء .. وذهبا الإثنين لا يلون على شئ فقد فازا بما يظناه فوزًا ساحقًا ..

حافظت على أسرتي الوليدة ، وعاهدت الله أن أحافظ على أسرة الحاج رمضان أيضًا بعدما تركهم مرسي وسافر ترك زوجته و زوجة عمه وولى بالأموال مع إحدى فتيات الحانات ..

أتت الأموال من كل صوب و حدب وكالتي لي و لأسرتي و الوكالة القديمة مناصفة بيني و بين شركائي .. أغدقت عليهم الخير أيضًا و وقفت بجانبهم فكنت رجلهم بحق ..

زحفت الأيام علي و اشتعل الرأس شيبًا ، و شعرت بإنحناءة في الظهر و بأوجاع تناثرت و تناقلت بين المفاصل و الظهر و الرأس .. فعلمت أن الحياة قاربت على أن تدور دورتها الكاملة .. كبرت دعاء و فاطمة ولم أفرق بينهما أبدًا ، تزوجا الإثنين من أخوان ..

حلمت بإنجاب ولد يحمل اسمي و يلملم أعمالي ولكن كانت مشيئة الله حاكمة و لم يفلح العطارين و الحكماء معي فأذعنت لإرادة الله ..

وهممت بالبحث عن مخرج و قلقت أيما قلق بالمستقبل ، حتى في زوج بناتي لم أجد فيهما من يعي كاري أو يهتم بعملي .

وكلما قض القلق مضجعي ألقى بنفسي في ساحة الحسين .. ووقفت ذات يوم نفس الوقفة التي وقفتها من قبل مغمض العينين أفيض أطرابًا و حزنًا فربت على كتفي ذاك الرجل النحيل ذو العينين الحالمتين ولم يتغير فيه شئ فربت على كتفي وقال " هون على نفسك فالفرج أقرب مما تظن " .. وكعادته قال ذالك ثم ذاب في بحور الهائمين .

رجعت لوكالتي و إذا بفتى دخل يسألني عن عمل وهو آت من بلاد الصعيد فرمقته بنظرة متفحصة وجدته قويًا تقطر ملامحه أمانةً و نبلاً وعيناه ترتقبان .. شعرت نحوه بإرتياح وطالعت الفرج في صفحة وجهه ورأيت فيه حسن بغدادي جديد ..

obeikan.com

القصة السابعة: الكاتب الصغير

في أمسية من أماسي شهر ديسمبر لعام ١٩٧٩ كان قطار الإسكندرية يرسل صافرته معلنًا بذلك قرب الوصول لمحطة مصر ، يخترق الضباب المتكدس مؤسرًا قوته أمام قوة البرد القاسية .. وقتئذ كان الكاتب الشاب صالح عبد الدايم يرسم آخر حروف روايته الثانية الجديدة ، وصاح بعدها وهم واقفًا يصرخ من شدة الفرح و يضحك ملئ شدقيه بقهقهة عالية حتى ظن الركاب أنه مسه الجنون ، و تعجب رجل خمسيني كان يجاوره في الكرسي المزدوج وقال إن هذا بفعل البرد و الصقيع الذي دب في جسد ليلتهم و اقترب منه و نصحه بأسلوب حكيم بأن يتناول شيئًا دافئًا وقتما ينزل من القطار و أشار عليه بالينسون فهو مفيد في مثل حالته .. ثم زال العجب بعدما وصل القطار لمحطتة الأخيرة فهم كل بجلب ما يحمله من متاع أو غير ذلك استعدادًا للنزول ،، جلب أيضًا صالح متاعه و كتبه محتضنًا روايته الجديدة الأهم بالنسبة له على كتب الدنيا ، كان المطر يهطل بشدة و عم الضباب حتى صعب على الواحد أن يتبين الوجوه حوله ناهيك عن الطرقات ، أضواء السيارات هي أكثر شئ يميزها بخارج الميدان الذي انزلق إليه صالح دفعًا مع الخلائق التي كانت متكدسة بل ومحشوة حشوًا بداخل قطار الدرجة الثالثة ، بعد الخروج حاول تبين المكان حتى وصل إلى مسجد الفتح يحتضن كتابه الأخير داخل معطفه الصوفي ومنه استقل تاكسي لشارع شريف حيث يقطن صديقه عبدالعزيز الملواني الصحفي المصور بجريدة الجمهورية ، دلف التاكسي لشارع كلود بك و منه انزوى لشارع شريف و كانت وسط البلد كعادتها تتبدى تحفة فنية غاية في الروعة و الأناقة و زادتها الأمطار روعة و بهاء .. و من ثم استقل المصعد الذي لفظه على باب شقة صديقه عبدالعزيز بالدور الأخير ، طرق الباب .. طرقه بعنف كانت عقارب الساعة وقتئذ تلدغ الحادية عشر ...

خرج عبدالعزيز وقبل أن يخرج بجسده خرج صوته الجهور وهو يسب الطارق أيًا من كان هو مستحلفًا بأغلظ الأيمان ليدقن عنقه حالما يفتح الباب ممسكًا بيد مقشة قديمة ، فتح الباب بعنف ولم يكن صالح يكف عن الطرق بشدة للحظتها دون أن يجيب صديقه بكلمة واحدة ، فتح الباب وقبل أن تهوى مقشة عبدالعزيز فوق وجه الطارق ، التقطها صالح ثم احتضنه بعنفوان الشباب و غلاسته المعهودة مع صديقه فاعتصره و أخذ يصيح لقد انتهيت من كتابة " حبائل الأوهام " ..

فصاح معه صديقه وتبادلا الحديث ..

-انهيت الرواية الثانية أخيرًا أيها الأحمق .

- نعم .. قل لصديقك إذًا حان وقت الخرس ..

- أه تقصد زكي المدبولي أولاً هو ليس بصديقي ، ثانيًا إنه ناقد وهذه مهنته ويجب أن تحترم ذلك ..

- أنتَ لست في حاجة يا صديقي لأن أخبرك عن الفارق الهائل بين النقد البناء و بين معول الهدم الذي يمسك به أمثال هؤلاء فلا ينفك عن التكسير و الهدم حتى يهدم الواحد تمامًا و يهزمه و يجعله يلعن الكتابة وما جنته عليه وربما ينقطع عنها للأبد ألا لعنة الله عليه وعلى أمثاله .. من أين يأتى الإبداع وهؤلاء متربصون به ؟

- لأنك طري .. جديد في الشغلانة ... عما قريب سيشتد عضدك و يقوى ساعدك و يكون أمثال هؤلاء النقاد أصدقائك وقتها سيمتدحونك يا سيدي بدلاً من أن ينتقدونك .. ثم إنك كلما جررت قلمك جلدتهم بسوط من فن و إبداع .. الساحة مفتوحة للجميع تفضل يا جدع ورينا البدع !

- تبًا لأصدقاء من هذه النوعية .. يا رجل عندما لم يجد شيئًا جديا ينتقده في الرواية أرسل كلماته الساخرة عابثًا بالعمل و قائلاً أنه لا يمكن الحكم على من عمل واحد وحقيقة لا أعلم لماذا هو شخصيًا لم يعمل برأيه هذا ويمتنع عن الحكم علي عملي الواحد .. أم أن الحكم بالسلب من وجهة نظره شيئًا طبيعيًا .. لن أنس ما قاله عن روايتى الأولى " هاميس " ..

وانها أتت صدفة و أنه ليس بمقدورهذا الكاتب أن يكتب مثلها مرة أخرى بدليل أنه ليس لي أعمال سابقة .. تبًا له و لأمثاله .. لقد مكثت عامين كاملين أتجرع مرارة هذا الكلام و أحاول مداواة جرحي بنفسي و قد كان يمكنني أن أنجز هذا العمل في وقت قياسي لولا ما سببه لي زكي المدبولي و أمثاله .. ألا لعنة الله عليهم ألف مرة ..

-كفى حديث .. الآن انتصرت عليه بكتابك هذا الذي حتمًا سألتهمه في القريب العاجل ولكن مطبوعًا طباعة جيدة فأنا لا طاقة لدي لفك طلاسم خط يدك الأشبه بخط القطط ..

- القطط لا تكتب يا صديقي .

- حسنًا أيها الأبله ..الآن تفضل للحمام بدل ملابسك المبتلة فانا أخاف على العفش أكثر من خوفي عليك ..

- دمت نذلاً يا صديقي .. فلتنجز لنا عشاءًا فإن عصافير بطني صارت طيورًا جارحة حذاري أن أخرج فلا أجد العشاء .

نام صالح نومة هانئة بعدما التهم العشاء .. تتلقفه بحور الأحلام و تتقاذفه الأمواج إلى شواطئ المجد ، دارت الشهرة و الأموال برأسه ..

هبت نسائم الصباح نضرة و أتت رياحه بكل ما اشتهته السفن .. رست قلاع عبدالعزيز كعادتها بجريدة الجمهورية يباشر عمله في أواسط الموظفين و

الصحفيين .. وكان أول عمل يقوم به بعد تناول فنجان قهوته المعتاد من يد عم عبده عامل البوفيه .. هو أن قام بالاتصال بدار النشر وتحديدًا بصديقه محمد عبدالعال الذي يرأسها و عرض عليه طباعة رواية صديقه الأديب الشاب وأعطاه نبذة مختصرة عن الرواية التي هي مزيج من الحب و الرومانسية و الدراما .. و عن صاحبه هذا و عمله السابق .. وافق و قال له دعنا نطلع على العمل الذي هو أساس كل شئ .. سآتي لك بالعمل وصاحبه اليوم الساعة الواحدة ظهرا وقت مناسب هكذا صرح عبدالعزيز ..

فأردفه صديقه قائلاً خير البر عاجله .

وهكذا التقيا الصاحبان و اجتمعوا بالاستاذ محمد عبدالعال بمكتبه بمقر عمله الواقع بنهاية حي الفجالة مكتب قديم لكنه ما زال يحوي لمحة جمال و أناقة لم يمحها الزمن ، وكان الاستاذ محمد رجلاً مثقفًا حقًا لا تاجرًا فقد كان بالمقام الأول قارئًا متميزًا .. قابل الصديقين بالترحاب و بعد حديث مطول عن أحوال البلد و حال روايته .. ترك له نسخته .. فعكف على قرائتها استغرق يومين حتى أتمها ومن ثم اتصل بهما و وقع عقد الاتفاق وعكف على تنقيحها و إعدادها للطباعة .. و في غضون شهر واحد كانت الرواية تغرق مكتبات القاهرة .. و كأن السوق كما هو دائمًا متعطشًا لشيء محترم يقرأ ، فكان لصالح جوامع من محاسن الكلم ، فهو حقًا صاحب كلمات قوية و أسلوب قوي البنيان لا يخلو من عذوبة و سلاسة و بلاغته لا غبار عليها و انتقائه لألفاظه جيدًا زاده جمالاً و بهاءًا و تفردًا .. بدا وكأنه مشروع كاتب كبير و أديب شمسه على وشك الإشراق و فجره يستعد للحديث ... في غضون أيام كانت " حبائل الأوهام " في أيد أغلبية القراء .. لاقت ترحاب كبير وفي حفل التوقيع تم نقاشها وبشر البعض بأن معشر الكتاب على موعد بميلاد كاتب فذ وقلم جديد سينضم لكوكبة الأقلام المبدعة ..

ولكن أبت خفافيش الظلام أن تترك هذه الشمس تشرق و بدأت مناقير الغربان تنقر الأبواب الآمنة ،حدث هذا سريعًا فذات صباح نشر في صدر أحد أكبر الجرائد اليومية نقدًا لاذعًا بقلم الأستاذ زكي المدبولي الناقد الكبير و القى بإتهامات جسيمة على الرواية التي باتت تحقق مبيعات جيدة و تناقلتها أيادي كثيرة و ألقى الثناء عليها من تيارات مختلفة من المجتمع ..

كالصياد الماهر يعرف كيف يصطاد في الماء العكر كما يقول المثل ، بل كانت له من الحرفة و الإجرام أن يعكر صفو الماء النقي ثم يرمي بشباكه في أوجه فيقع الصيد الثمين بين يديه سريعًا .. هكذا كان زكي المدبولي هذا ..

فكان نقده اللاذع مبتدئًا بإقتباس من الرواية نفسها " فآثر عمر ياقوت بعد ذهاب حبيبته الإبتعاد عن هذه الأرض التي ضاقت به أربعون ليلة قضاها وحيدًا يناجي فيها ربه و حده ، مبتعدًا عن البشر إبتعادًا يصل إلى حد القطيعة التامة ، أربعون ليلة عاد بعد إنقضاؤها بذهن صاف و عقل أكثر حكمة واتزانًا وهدوءًا ، يلقي الكلام وكأنه تأويل أنبياء ليس كما كان بالسابق يلقيه على عواهنه " ..

وأجزم هنا أنه يحاكي قصة سيدنا موسى بأن ترك قومه و ذهب لملاقاة ربه أربعون ليلة تمامًا كما ذكر هذا الكاتب الصغير بحسب وصفه ..

وقعت الجريدة بيد عبدالعزيز الملواني فكاد يمزقها من شدة حنقه وذهب من فوره لملاقاة صديقه كي يعرضها عليه ولكن سبقته الأنباء ، حيث علم صالح بأن أحدهم أشار إلى روايته صباح اليوم فبعد الإنتهاء من تناول فنجان قهوته بجروبي دلف لشارع شريف في طريق عودته للمنزل فتناول الجريدة من البائع و هم بالبحث فيها كان ذلك في نحو الساعة الثانية عشر وهو على باب البناية فدخل للمصعد وعينيه على الخبر الذيي يمس روايته و سمعته معًا وتابع القراءة بقلب منقبض وصل المصعد للطابق الأخير في اللحظة التي صعدت الدماء لرأس صالح وخفق قلبه خفقانًا شديدًا وطفحت نفسه حنقًا و حزنًا فهو لا

يطيق أن يحتمل إتهاما كهذا الإتهام ولا يقبل أن يرتكب إثما كهذا الإثم ، نقرت دموع العين صفحة الجريدة كالأمطار التي تنقر زجاج النافذة تزيل عنها الأوساخ وتستمر في نشر خطوط طولية هكذا نثرت دموعه خطوطًا ونقاطًا متقطعة بالجريدة ، سحب أحدهم المصعد للدور الثالث فنزل وبداخله صالح ينظر بوجوم للجريدة لا يكاد يصدق ما يقرأه وكأنه في كابوس مخيف لم يفيقه منه حتى رائحة العطر الآخاذ الذي تضعه الشابة التي طلبت المصعد بالطابق الثالث و القت التحية عليه لكنه لم يرد فهبط للدور الأرضي وخرجت هي و تركته .. فأتى رجلاً سمينًا يدعى الاستاذ سيد عكاشة يقطن الطابق الرابع وهو موظف على المعاش صاحب جسد برميلي منتفخ حشر نفسه في المصعد هو و زوجته لم يعبئ بهم أيضًا بهم صالح فصعدوا معًا للطابق الرابع ثم خرجوا و تركوه ، مرت قرابة نصف ساعة وصالح لا يجرؤ أن يخرج أو أنه نسي أين هو .. وماذا يجب أن يفعل الآن .. اختطف المسكين قلبًا و عقلاً .. و أخيرًا تنبه لنفسه فلملمها ، ودخل الشقة و القى بجثته على كرسي بالقرب من الباب غارقًا في عرقه يلجمه الحزن لجمًا ، و الجريدة مهلهلة بيده ، في هذه اللحظة دخل عليه عبدالعزيز ، فلما وقعت عينيه على صديقه فهم كل شيء ..

فبادره قائـلاً .. تبًا لهؤلاء الأوغاد يأكلون من لحوم الأحياء دون خشية ، و يلقون التهم جزافًا و يحاسبون الجميع دون أن يقدر أحد على محاسبتهم ، معول هدم حقيقي كما ذكرت آنفًا .. لكن لا يعنيك هذا يا صديقي غدًا ستنتصر .. هذه فرصة دعائية ثمينة .. وسأوفر لك فرصة للرد عليه بالجريدة ، ولو كلف الأمر رفع قضية عليه لفعلنا ذلك دون تردد .. لابد أن يعتذر عن كل كلمة قالها في حقك يا صديقي ...

بين عشية وضحاها أصبحت الرواية و صاحبها حديث الصباح و المساء .. ما أصعب الإصطدام بثوابت المجتمع وما أسهل اللعب على هذا الوتر الهائج دائمًا في مجتمعاتنا .. لم تفلح محاولات صالح و صديقه و الأستاذ محمد عبدالعال لدرء هذه التهمة الشنيعة عن الرواية و محاولة شرح مقصده و أنه لم يكن

هناك قصد بأى حال من الأحوال بالاحتكاك بقصة النبي موسى عليه السلام ، ولكن احتدم الأمر و ثبتت التهمة .. ثبوتًا لا رجعة فيه .

وقف جموع الكتاب مع صالح و ذاع صيته بذياع صيت التهمة نفسها ، ود لو لم يكن له ذكرى من الأساس أفضل من هذه الذكرى السيئة .. حلم كثيرًا بتخليد اسمه ولكن ليس كهذا الخلود المقترن بإثمًا عظيمًا كهذا الإثم .. بدا وكأنه صانع السفينة الضخمة تيتانك صحيح إنها سفينة عملاقة و عملاً مميزًا و أسطورة خالدة بخلود اسمه لكن تيتانك غرقت .. فحفر في الإذهان بدلاً من أن هذا صاحب العمل المتفرد الضخم إلى أنه صاحب السفينة الغارقة ...

هكذا غرق صالح في سيل من الإتهامات وصلت لحد الكفر ... هكذا فعل بنجيب محفوظ من قبل يا مسكين فما بالك بكاتب صغير مثلك .. أين أنت من قلم النجيب !! مجرد حشرة تائهة .. ذبابة ضالة .. دبور و اختار خراب عشه قبل تشييده ..

استطاع عبدالعزيز باتصالاته أن يهيئ له موعدًا مع أحد الإعلاميين المشهورين بالتلفاز لعرض وجهة نظر صديقه ..

فحل ضيفًا على هذا الإعلامي ولكن وكأن هذا الإعلامي كعادة الإعلاميين الوقيعة ، اوقع الإعلامي به و شعر صالح وقتئذ بالخديعة فقد تم استدعاء ضيفًا دون استئذانه وشرع هذا منذ اللحظة الأولى على مقاطعة صالح و مهاجمته بل وإتهامه بالكفر .. تبرأ صالح من التهمة و أقسم أنه لم يقصد أبدًا التطرق للدين ولا مهاجمته فهو يعرف جيدًا حق الدين و هو جد رجل مؤمن يؤدي الصلوات على وقتها .. وأقسم بأغلظ الأيمان بأنه أبعد الناس عن الوقوع في مثل هذا الإثم ..

هبت على البرنامج إتصالات كثيرة هاجمته و أشادت بالضيف الآخر و أخرى كفرته و أخرى أنذرته لم يجد أذانًا صاغية له .. حزن حزنًا شديدًا ... و قاسى كثيرًا من العناء و شعر بألم نافذ إلى قلبه يدميه ..

و أيقن في أعماق نفسه بأن لا فائدة ترجي خاصة ممن لا يقرأ فهو ينساق مع المنساقين .. وربما يلقي حتفه لو تصادم مع هؤلاء فلكأنه يصدم رأسه بسور عملاق فلن يتأثر السور بشيء ولو تهشمت رأسه .. وصدق على ذلك صديقه الذي نصحه بكتابة اعتذار بالجريدة عن هذا الخطأ الذي وقع فيه سهوا .. ربما يخفف هذا من وطئة الهجوم الذي يتعرض له ليل نهار و الذي وصل إلى مئات البلاغات في النيابة ضده ناهيك عن التهديد من البعض بالقتل ..

وحدث بالفعل أفسح له عبدالعزيز مكانًا بالجريدة فنشر فيه إعتذارًا مهذبًا عن ما كتبه سهوا أو فهم خطأ ..

و مع الأسف حدث ما لم يقع في الحسبان ، فبعد الإعتذار ثبتت التهمة عليه وكأن الإعتذار إعتراف أصيل بالذنب .. هكذا يفهم الإعتذار عادة في مثل مجتمعاتنا .. بات الكاتب الصغير سجين ذنبه .. بل و أكل الجميع على قفاه كما يقولون .. لم يجد مناصرون له حتى جمعية الكتاب التي كان يتكأ عليها انضمت لجموع المهاجمين المتكالبين عليه .. تكالبت عليه الظنون تمامًا مثلما تكالب عليه الكتاب و بين عشية وضحاها زج به بداخل السجن بتهمة إزدراء الأديان بعد تدخل أحد الأذرع السياسية في القضية و تحريكها بسرعة تلبية و إسترضاءًا لجموع غفيرة من الشعب الذي لم يتسنى له قراءة الرواية بعد .. هكذا يحدث عادة من الساسة لكسب ود من لم تمنحهم سياساتهم ودهم ..

هكذا وأدت الموهبة الشابة ، دفنت في غيابات السجن بلا ذنب ، عامان ما رقه كلمة يرسمها على ورقة رغم الأفكار التي تعج بها رأسه ولكن يجب تهيئة جو أكثر هدوءًا و مناخًا أكثر اعتدالاً وحياة أكثر عدلاً وطمأنينة ليرسم حكاياته على الورق .. زاره صديقه كثيرًا و بعض الأقارب القلائل من الإسكندرية و

منعت جيهان خطيبته التي خطبها بالإسكندرية قبل أن يهبط للقاهرة لإعلان روايته المشئومة وذلك ما جعله يؤجل الإحتفال بخطبته حتى يتسنى له ذلك ، وها هي الخطبة ذهبت أدراج الرياح مع ما ذهب وكأنها لم تكن .. لم ينزعج كثيرًا لهذه الواقعة بالتحديد ففي حقيقة الأمر لم يكن يحبها حبًا شديدًا بقدر أنه عظم جمالها و احترم رغبة أمه و أخته الوحيدة زينب في الزواج من جيهان .. لقد كان جد ولدًا بارًا بأمه .. لم يآبه بما فعلته جيهان بقدر أن الأمر وقع في نفسه موضع الألم الشديد ليست الخطيبة البلهاء ولكن لشعوره بتنصل الناس منه .. لكنه سامحها جراء مصارحة وقعت بينه و بين نفسه التمس لها العذر وقال هذا ما يجب أن يحدث ..

أيام صعبة مريرة كابد ويلاتها ، شحب لونه ، و نحل وجهه بعد إصفراره حتى صار مثل طائر الكناري وجحظت عيناه ، الحياة في السجن يمكن تشبيهها بالحياة داخل قبر ، بل إنها في كثير من الأحيان تصبح أشد سوادًا لأن في داخل القبر تمكث أنت و الجدران فقط و هذه منحة كثيرًا ما تفتقد بداخل السجن وكأن كل شيء بداخل السجن يشارك بعضه البعض من أجل إيذائك و تشويش ذهنك .. لاقى صالح صنوفًا من الذل و الهوان على أيد السجناء ، لم يكن يتخيل أن يبادره القرف و الإشمئزاز سجين سارق و آخر قاتل أو مرتشي بل إن السجين سمير عوض الشهير بقرني القواد الشهير بصق على وجهه في أول لقاء به و سبه ولعن فعلته .. أي ذل و هوان أشد من هذا .. قاطعه الجميع و عاملوه بإحتقار طيلة مدة سجنه .. حتى خرج من السجن دون أن يظفر بصاحب واحد منه .. خرج وحيدًا غريبًا فاقدًا لطعم الحرية ، يستقبل أيامه القادمة بمزيدا من السخط و الحنق ، لا يرض عن شيء .. ولا يرضه شيء هكذا يكون دائمًا شعور المظلوم ، ذهب لشقة صديقه مشيًا على الأقدام يرفل في ثياب مهترئة متسخة يطفح منها روائح العرق و تطل الأوساخ من هيئته ..طرق الباب فلم يجبه أحد ، كانت الساعة قرابة الواحدة ظهرا فخمن أن صديقه ما زال في العمل .. وقد كان منهك الجسد فقد فَقَدَ صحته مع ما فقد من

كرامة و عزة نفس بداخل السجن ، فسقط متهالكًا أمام باب الشقة وهو أقرب للموت منه للحياة .. ظل هكذا على حالته حتى آذنت الشمس على الغروب .. أتى عبدالعزيز فأفاقه و احتضنه معتذرًا له عن إنشغاله و نسيانه لميعاد الإفراج ودلفا للداخل ..

مكث فيما يقرب من عشرة أيام بداخل الشقة لا يفارق السرير إلا عند الضرورة الملحة .. زاره الطبيب ثلاث مرات وبدا بمعاونة صديقه يتلمس أسباب الشفاء و يعود للحياة شيئًا فشيئًا .. ألح عليه عبدالعزيز كي يخرج من عزلته هذه و يبدأ صفحة جديدة ، فأمامه تحديات جمًا .. و بالفعل خرج معه ليلته فتناولا العشاء بمطعم كبدة شعبي ، ثم تبعاه بكوب الشاي على مقهى بلدي صغير في أحد الأزقة المنشقة بوسط البلد .. بدا يشتم ريح الحرية على مضض ، لا يغوص في الحكايات بإسهاب تكفي إيماءات قليلة و كلمة يلقيها بين الحين و الآخر مجاراة لأحاديث صاحبه التي لا تنقطع ..

بدا وكأنه مفصولاً عن الحياة برمتها كغصن شجرة أخضر تم إجتزائه من شجرته صحيح أن أوراقه ما زالت خضراء بعد قصه لكنه فقد الروح وقتما تم سلبه من جزعه فذبل و بدا يأفل قمره و يتبدد جمال أوراقه الشابة شيئًا فشيئًا في طريقها للجفاف ومن ثم التساقط ..

ولما كان صاحبه أعلم الناس به فكان على علم بمعشوقته التي بإستطاعتها أن تغير من حالته هذه حال يلتقيها ، لذا دعاه إليها قائـلاً .. هيا بنا للسينما فهناك فيلم رائع اسمه " حب في الزنزانة " و هو حديث المجتمع هذه الأيام ، أطلق نصف ضحكة أتبعها بآهة وقال الزنزانة ورائي في كل مكان يا زيزو حتى في السينما .. فأردفه زيزو قائـلاً بل الحب يا صديقي ورائك في كل مكان الحب الذي ينبت في شتى ربوع الدنيا حتى الموحش منها وليس أوحش من الزنزانة شيء وبرغم ذلك نبت الحب فيها هي بنا .. انبسطت أساريره و ندت عنه إبتسامة صغيرة من شفتيه الرقيقتين ، وسارا معا حيث شاهدا الفيلم الممتع

سويًا .. تقاسما الإبتسامة و زرفت أعينهم الدموع ريثما يشاهدوا الفيلم الذي اختطفهم .. وتسائلا بعد ذلك عن حقيقة الأمل الذي يعيش الإنسان من أجله ويمد له في عمره و يزيده تمسكًا بالحياة .. متى وجد هذا الأمل .

ودبت الحياة من يومها في جزع صالح ووصلت المياه للأغصان وبدت الأوراق الذابلة تستعيد نضارتها مرة أخرى ..

تحدثا كثيرًا بمرور الأيام عن كيفية عودته للكتابة التي هي حلمه الأوحد و قدره الذي يريد أن يصنعه بيديه حتى لو عاندته الدنيا بأسرها لن يحول شيء بينه و بينها ، ولكن كتب الفشل على محاولاته الكثيرة في التردد على دور النشر التي تنكرت له و ولته ظهرها بحجة أن له ماض آثم ، رفض نصائح الأستاذ محمد عبدالعال الذي نصحه أن ينشر كتاباته باسم مستعار ، فانتفض غاضبًا و قال هذا أنا فلتقبلوني كما أنا أو فلترفضوني كليًا ..

أسفاه عليك و على قلمك الرشيق كان من المفترض أن يكون لك مستقبل باهر لكنك سيء الحظ في هذه البلد جرب أن تستبدلها .. هكذا صرح محمد عبدالعال لصالح ..

لم ييأس الكاتب الصغير ويسلم بالفشل بسهولة ولكنه حاول و حاول مئات المرات ، سافر للإسكندرية جلس مع أمه و أخته أيامًا ومن ثم بحث في الأسكندرية وفي كافة المحافظات المصرية عن من يتبناه فيقيم معه عهدًا بأن ينشر له روايته الجديدة ..

كان قد خرج من السجن بمادة كثيفة و قوية و أفكارًا كثيرةً جدًا و عشرات الحكايات التي باستطاعته أن يتناول كل فكرة منها في رواية كاملة ..

صرخ هائجًا في إحدى المرات في وجه عبدالعزيز و محمد عبدالعال قائلاً إن عشرات الروايات و الأفكار بداخل عقلي مخزنة.. ما عسى يكون مصيرها هل

تدفن هكذا بداخل رأسي أو يمحيها الزمن قبل أن تخرج للنور .. محال يحدث هذا .

فأشارا عليه أن ينتهي من كتابة واحدة منهم وحالما توجد يكون هناك شئ مادي ملموس يمكنه وقتئذ التفاوض على أساسه .

في غضون شهرًا واحدًا كانت الرواية مكتملة الأركان بين يديه .. ولكن خاب ظنه مرة أخرى، رفض الجميع فلم يقبل أحد فكرة الجلوس معه أو إعطائه فرصة للحديث ، أوصدت جميع الأبواب في وجهه ، استحكمت حلقات القدر حوله فإندفع منفعلاً محتقنًا إلى مكتب رأس الأفعى و السبب الرئيسي فيما حدث له وهو الناقد زكي المدبولي وهاجمه بشراسة و القى عليه وابلاً من السباب و أحتدم الصراع و غلى الدم في عروق صالح و هم بالفتك به لولا أن حال بينهما العاملون بالمكتب و توعده المدبولي بأنه سيعيده للسجن الذي جاء منه مرة أخرى فما كان لأمثاله أن يخرج للحياة ..

بالفعل قام الأستاذ زكي بعمل محضر رسمي لصالح و أتهمه بالتهجم عليه وسبه وضربه ، بات صالح ليلتها في السجن ، رجع مرة أخرى للنقطة السوداء في حياته ، نقطة السجن التي لا يريد الحديث عنها ولا تذكرها بأي حال من الأحوال ها هو يوضع كليًا بداخله ليس كابوسًا ولكنه واقع .. هكذا حكم عليه و على فنه بالدفن في جوف السجن ، تدخل عبدالعزيز بسرعة و فعل اتصالاته و استعطف الجميع للتوسط لدى الاستاذ زكي للعفو عن صالح ، تعنت زكي كثيرًا .. و رفض كافة الوسائط ..

لعنه صالح من وراء القضبان وقال لصديقه إن قدر لي الحياة حتى أخرج من هنا سأذهب لقتله و تعليق جثته في ميدان الأوبرا .. قال هذا ثم بكى و استعطف صديقه أن يفعل شيئًا يخرجه من هنا .. ذهب عبدالعزيز هو وزميل له يدعى عبدالرحيم القناوي رجل صعيدي يلقي الكلام بحكمة و دهاء ، ذهبا لمكتب زكي المدبولي بعمارة الإيموبليا و أقنعه أخيرًا الصعيدي بأن يسامح صالح

مقابل أن ينفذ له ما يرضيه فاختار اللئيم أن لا يجاوره في القاهرة برمتها ، فقبلوا و قبل بذلك أيضًا صالح و أخبرهم بأنه قد اتخذ قرارًا بتدبير أموره حالما يخرج ولسوف يترك البلد بأسرها ... فلا كرامة له في وطنه ..

مر أسبوع تناقلت بالطبع الجرائد و الصحف و الإذاعات المحلية و التليفزيون الواقعة ، و نال صالح ما ناله من تحقير و تسفيه و مهاجمات .. ألقي به في سلة القاذورات ، ذهب في نهاية الأسبوع زكي و عبدالعزيز و عبدالرحيم لإتمام محضر الصلح و التنازل في القسم لصالح الكاتب البائس المظلوم .. خرج صالح فوجد أن السباب له يأتي من كل مكان بدا و كأن الشتائم تتطاير في الهواء ..

ضاقت عليه الأرض بما رحبت .. لفظته مصر كما يلفظ البحر غريقه بعدما ينهي حياته فيلفظه للخارج تتقاذفه الأمواج يمينا و يسارًا وكأنهم يعبثون به دونما إبداء إحترامًا لحرمة موته ...

جلس في اليوم الأول لخروجه من السجن مع عبدالعزيز في شقته ودار حديث موجع بينهم وتطرق للحديث عن الفيلم الذى شاهدوه قبل الزج به داخل السجن للمرة الثانية .. سأل صاحبه هل يوجد حب بداخل الزنزانة حقًا ؟

وهل هناك فارق بين زنزانة في مصر و أخرى في أمريكا أو إسرائيل أو أي بلد آخر ؟

- الحب موجود في كل مكان يا صاحبي نظل نبحث عنه في إنتظار أن يأتي في الوقت المناسب ، أما السؤال الآخر لا أعرف له إجابة .

- لأنك لم تذق العيش في زنزانة يا صديقي .. ولم تجرب شعورًا مقرفًا حين تجد نفسك مجرد حشرة قذرة آثر المجتمع على تنحيتك جانبًا وإلقائك في جحر عفن وبداخل الجحر تجد من يعمد على إهانتك وتنحيتك أكثر لتصل لقاع

الجحر أو بمعنى أدق يكنسك بمكنسة ويطأ وجهك بحذائه يسحق هامتك وينتزع منك أي ذرة كرامة باقية ..

- هون عليك يا صاحبي ..

- سيهون كل شيء حالما أجد هذه الزنزانة التي يوجد بها حب ..

ثم وقف فجأة بعدما شاهد انعقاد حاجبي صاحبه و نظرته إليه باحت بكل شيء .. فضحك ضحكة عالية أقرب للسخرية منها للجد وقال أنا أعرف أن هذه جملة أسئلة ساذجة ، بل و ساذجة جدًا إلى الحد الذي لا يوجد لها إجابات لإنها ما كانت لتسأل من الأساس ..

ثم هبط بجسده فوق كرسي خشبي بجوار الباب و قال متحسرًا بصوت له من الحشرجة ما يمزق القلب ، ضاع مستقبلي ، سلبت إرادتي ، سرقت أحلامي ، دفنت وأنا حي ، تحطمت كليًا .. يخيل إليّ أن العالم كله يهجرني و الناس يهربون مني و العوام يبصقون عليّ في الطرقات ، صرت منبوذًا وكأني أجرب ، إن نفسي تفيض بالحزن و الألم ، سجنت عامين كاملين سحقت هامتي بداخل السجن تقوقعت على نفسي وهنت عليها ، بكيت حتى جفت ينابيع الدموع و نضبت العين و طحنت الفاقة جسدي و طفح قلبي بالمرارة ..

أشفق عليه صاحبه وقال له كفى حديثًا الآن هيا لغرفة نومك نام و استرخ ودع همك بيد مفرج الهموم ..

دخلا كل إلى غرفته ... أشرقت شمس الصباح فلم تجد صالح على سريره ، بحثت عنه مع عبدالعزيز في أروقة الشقة لم يعثروا له على أثر .. أين ذهبت يا مسكين ..! هكذا قال عبدالعزيز .

حاول البحث عنه كثيرًا فلم يجده ، لم يكن لصالح أصدقاء كثيرون ، بل إنه في حقيقة الأمر لم يكن له أصدقاء من الأساس سوى عبدالعزيز .. حتى في موطنه

بالإسكندرية لم يكن له أصدقاء فقد ربي على الوحدة عاش في جنباتها ألفها فأحتضنته وعطفت عليه كما لو كانت ابنته فكانت هي سلواه الوحيدة ومعينه و صاحبته و معشوقته ...

مر شهرًا كاملاً كاد عبدالعزيز أن يجن لإختفاء صاحبه وطفق يسأل عنه في كل مكان توقع حتى أنه صار متسكعًا في شوارع المدينة لعله يجده عند منعطف ما ، أو مكتبة أو سينما أو حتى متسكعًا في شوارع القاهرة في أواخر الليل كعادته القديمة المفضلة لديه ، وخيل له بأنه رآه ذات مرة يسير بشارع قصر النيل ريثما كان عبدالعزيز راكبًا مع زميله الصعيدي سيارته ولكنه ذاب من بين يديه ، فقد وقفت السيارة متأخرة و هرع مترجلاً يبحث عنه فلم يجد له أثرًا فقال له زميله ربما الأمر لا يتعدى كونه خيال .!!

مر اليوم الثلاثون على إختفائه .. وفي صباح يوم جديد ريثما يستعد عبدالعزيز للنزول وجد مظروفًا زج به أحدهم من أسفل عقب الباب .. تناوله من الأرض مسرعًا وفتحه وبدا يقرأه بصوت عالي

" السلام عليك – يا صديقي العزيز ، يا رفيقي الوحيد في هذه الدنيا الذي أشعر نحوه بحرارة الأخوة الحقيقية في هذا العالم البارد ، التمس لى عذري يا صديقي فأنت تعلم مدى هشاشتي في أوقات الحزن ففضلت الهرب من لحظة الوداع على الوقوف أمامك لأودعك وداعًا ربما يكون لا نهائيًا ولكنه سيطول ، سوف تبعدنا المسافات يا أخي و سيقف في المنتصف جدارًا عازلاً يحول بين تواصلنا ، سأفتقدك يا أخي يا من ولدت أفكارنا معًا ونشأنا تقريبًا نفس النشأة و عانينا معاناة مشابهة فلم يضن علينا الفقر بشئ حرمنا منه ولم تبخل علينا يد القدر بنزع كل ما تمنته قلوبنا و جعله أبعد ما يكون عنا ، أتذكر يا صديقي حديثنا في الأيام الخوالي عن العزيمة الصلبة و الآمال العريضة ، أتذكر يا صديقي كم كنا نحاول كل صباح جاهدين لعلنا نصل لإنفراجة أمل جديد في صخرة الحياة الصماء فنفشل ، ثم نحاول مجددًا فنفشل أيضًا ، فنقول إن الأمر

يحتاج قوة أكثر فندفع بكل ما أوتينا من قوة في صباح يوم جديد لنتفاجئ بالفشل أيضًا ، فنتآلم لذلك جدًا و نجلس سويا نعبئ أنفسنا بكلمات تشجيعية و أمثلة عن نجاحات كانت نتيجة مثابرة ، فنهم مستجمعين ما تبق في جعبتنا من قوة و بأس و نشد أزرنا ثم نعاود الكرة مجددًا مع بداية صباح آخر ، ، نكر و لا نفر ، نأمل و لا نمل حتى تمل الحياة و تلين صخرتها و تطلق صرختها معلنة انفراج الباب ذات يوم تحية لمثابرتنا و صبرنا ولكن لم يحدث ذلك ولم نتجرع إلا ألمًا لاذعًا مع كل فشل ، أقولها لك بملئ فيي يا صديقي أنني لم أعلن استسلامي حتى اللحظة .. حلمى سأكمله لكن على أرض أخرى بعدما لفظتني هذه الأرض .. أقولها بكل الصدق لقد كفرت بأشياء كثيرة في هاتيك الأيام السابقة ولكن لم يكن حلمي من بين هذه الأشياء التي كفرت بها ، فمحال يكون الفشل حليفي ، لدى حلم و سوف أحققه على أي أرض و مع أي أناس .. ولو تحالفت مع الشياطين .. كلمة الشياطين هنا ليست مبالغة يا عزيزي ولكنها حقيقية أنا أعي جيدًا هذا اللفظ و أعرف أنني على أتم استعداد للتحالف مع أذناب الشياطين ..سأبحث عن زنزانة أخرى يا صديقي ربما يتاح لى فيها ممارسة حقي في الحب و الحياة و ملامسة آدميتي ..

لا تتعجل ستعرف كل شئ في ميعاده يا صديقي و لو أردت التواصل معي وقتئذ ستعرف الطريق إلى جيدًا ..

وداعًا يا أخي الغالي .. أسأل الله أن يكلأك برعايته و يمهد لك طرقًا أكثر إتساعًا و أمنًا و أن يلق في طريقك أناس أكثر رحمة و أوسع أفاقًا و أقل ضررًا من الشياطين ..

صديقك سئ الحظ صالح عبدالدايم .

بمرور الزمان و كرور الأيام انخرط عبدالعزيز في عمله و صار له شأنًا و مكانةً لا بأس بها وبإندماجه و تخصصه في عمله و دراساته المستمرة وحفنة من العلاقات الإجتماعية أستطاع الحصول على منصب رئيس تحرير لأحد

أقسام الجريدة ، وتمرس كثيرًا وتم استضافته أكثر من مرة في التلفزيون لإبداء رأيه في بعض التحليلات و الأخبار اليومية ..

انقطعت أخبار الكاتب تمامًا و ما عاد يسمع له حثيث ، انطفأت شمعته .. ماتت أمه دون أن يحضر جنازتها ولم يعد يكترث أحد بإقتفاء أثره وتناثرت الأقاويل عنه وأغلب الظنون ذهبت إلى أنه هاجر أو مات .. ولكن جثته لم تدلل لهم على ذلك .. ولم يطالعه أحد في أي بلدة ..

مر ما يقرب من عامين و على حين غرة وقعت الصدمة ، لم يطرأ على بال أحد بأن يذهب خيال هذا المجنون لهذا المكان و أن يتحدى الجميع ويغير جلده بهكذا طريقة .. بدا الأمر عن طريق خبرًا تناقلته إحدى الوكالات الصحفية يقول بأن هناك كاتب مصري شاب يدعى صالح عبدالدايم ظهر على القناة العاشرة الإسرائيلية في حديث مع مقدم برنامج العاشرة و حكى فيه عن كم المآسي والسجن و الاضطهاد الذي عاشه في بلده مقارنة بكم الحرية التي أتاحتها له إسرائيل بعدما تبنته و اعطته المساحة الكافية و الجو المناسب للإبداع و أنه بالفعل قضى عامًا للاستشفاء من الآلام النفسية و الجسدية التي وقعت له على أيد بني جلدته، أما العام الثاني فأسماه عام الإبداع فكتب رواية بعنوان " الهروب من فوهة البركان " وهي ذات أحداث واقعية حدثت له شخصيًا يحكي فيها بطريقة مشوقة عن نفسه و ما جرى له و كيف جرى ما جرى إلى أن وصل لإسرائيل عبر بوابة اليونان ..

انتشر الخبر كالنار في الهشيم وذاع في أرجاء البلاد ، صارت مصر كلها تعرفه الآن بغض النظر عن أنهم يشتمونه و يصفونه بالخائن و يصدرون عليه أحكامًا بالإعدام دون خضوعه لمحاكمات .. وقع الخبر كالصاعقة على رأس عبدالعزيز الملواني الذي ظل يصرخ و يوجه لكمات إلى الأبواب و يضرب مكتبه برأسه قائلاً " أي نوع من الشياطين تحالفت معه يا صالح كان أمامك

شياطين كثيرة فلماذا اخترت أسفلهم و أرذلهم " .. تبًا لك و لشياطينك يا صالح تبًا لك .

تبًا لي إذ لم يتفتق ذهني على ما يريد الإقدام عليه و استهنت بمقولته التي اكدها في خطابه و ظننت أنه يهذي .. تبًا لذاك الناقد الحيوان الذي دمر كاتبًا و ألق به في خندق الشياطين .. تبًا لمن لم تتسع آفاقهم لتقبل كاتب كل ذنبه أنه صاحب قلم حقيقي و ليس له ظهر .. تبًا لمن لا يملكون الخيال .. الرحمة .. الرحمة يا الله ..

ظلت أخبار صالح تتصدر عناوين الصحف و المجلات و أحاديث الإذاعات و البرامج الثرثارة في القنوات التليفزيونية ،ترجمت روايته الأخيرة لعدة لغات إذ صدرت بالعربية فكان أول ما ترجمت بالعبرية ثم لغات أجنبية كثيرة و كان له من الحذق و الإبداع أن الواحد من الناس متى تقع الرواية فيه و يبدأ بقرائتها أنه لا يستطع فعل شئ بعد ذلك سوى الإندماج فيها و الغرق في تفاصيلها فتراه منكبًا عليها يلتهمها دون هوادة متلذذًا تجذبه الرواية من تلابيب قلبه ، ذاع صيته و استضيف في عدة قنوات غربية و انتقدته كافة القنوات العربية بينما دار سجال دائم بينهما وصل لحد التكفير و إتهامات بالخيانة بينما تعاطفت جمعيات غربية كثيرة معنية بحقوق الإنسان و جمعيات أخرى تهتم بالكتاب تعاطفوا معه جراء ما حدث له و أسرده في وقائع روايته الشهيرة التي صدقها العالم .. و ترجمت الروايتان الأخريتان و خاصة حبائل الأوهام التي سجن بسببها وحققت نسبة مبيعات و قراءات ضخمة ما كان يحلم ببلوغها ..

و قد قال في ذلك عندما سئل في برنامج تلفزيوني " إن أهل موسى تفهموا روايته ولم يوجههوا لها نقدًا لاذعًا كما وجه له في مصر على لسان زكي المدبولي الذي لا يمت لنبي الله موسى بأي صلة ، بل وتم تكريمه على أعماله الثلاثة ومنح الجنسية الإسرائيلية التي لم يستطع رفضها إذ قبلها أهل الأرض الأوائل من الفلسطينيين ..

في غضون أيام بعد هدوء العاصفة الهوجاء ، أصدر قصة قصيرة بعنوان " قلبي يحدثني " .. جسد فيها معاناة يعيشها بطل الرواية بينه و بين قلبه و تنازع عاطفته و صاغها كحوار أدبي ماتع بين البطل و بين قلبه و أجرى الكلام على لسان القلب فاستنطقه .. تلقفتها الصحف الاسرائيلية بنشرها أجزاء متتابعة و نال أجرًا باهظًا جراء ذلك و من ثم تم طباعتها في خلال وقت قصير للغاية ثم ترجمت ولكن دون إستئذانه خط على جبين القصة اسمه ولكن بتصنيف جديد ألا وهو " الكاتب الإسرائيلي " ... صعق عندما قرأ الغلاف وأجرى الإسم على لسانه أكثر من مرة " الكاتب الاسرائيلي صالح عبدالدايم .

امتقع وجهه و غلى الدم في عروقه وتنبه إلى ما أوقع نفسه فيه ، سقط في اختبار الثوابت ، لما لا وقد انهارت في الآونة الاخيرة الكثير من الثوابت التي طالما تشدق بها و آمن بقدسيتها ، إسرائيل التي وصفها في خطابه لصديقه بأنها أذناب الشياطين ، أما زال يعتقد في شيطنتها أم أنها التحفت برداء ملائكي بعدما مدت يد العون له و احتضنته بل و جذبته إليها كما يجذب العنكبوت الذباب إلى خيوطه المتشابكة ...

لا مفر إذا من الحقيقة التي تقول أصدائها بأنه أصبح كاتبًا اسرائيليًا يحكى بهوى إسرائيل و يصنع لها تاريخًا أدبيًا وهي في أشد الحاجة لتأريخ نفسها و تصدير أشخاص عالميون يتحدثون بإسمها و يرسمون صورة نبيلة لوجه الشيطان و يلقوا برداء ملائكي على أذناب الشياطين و يسدلوا ستارا على سقطاتها ...

تكشفت خيوط اللعبة و ما كان له إلا الإندماج أكثر في اللعبة و إنتهاز كل الفرص للوصول لمجد شخصي لا يعادله مجد .

نال جوائز عدة .. وصار يعد أحد مفكري الدولة ،هام في المجد ، تقلد أوسمة ونياشين رفيعة ، أنفق عليه ملذات و متاع الدنيا .. قطوف دانية من جنات الأرض القي في رحابها .. و صارت الأموال و الثروة أتفه شيء وصل إليه ،

نال حفاوة بالغة و علا شأنه لكنه تقزم أمام نفسه و عاتبه ضميره في كل لحظة انفرد به فوجه إليه لكمات قوية والقي بالمرارة في فؤاده فكان ينظر إلى ثروته و أعماله و شأنه ويقول كل هذا مثل سراب بقيعة لو وضعتهم في ميزان حقيقي لم أجدهم يزنون شيئًا .. الهرب الوحيد من هذه الحالة تجسد في الشراب فأقبل عليه وجد في الخمر راحة لم يجدها في غيرها .. و تمثلت راحته في النسيان، كل ما كان يريده هو النسيان .. فكان ليله للشراب و نهاره للكتابة و اللقاءات و آثر على قتل أي لحظة فراغ لديه ، كي لا يقع تحت طائلة ضميره لحظة واحدة ...

دُعي ذات يوم إلى جامعة تل أبيب فذهب و ألق محاضرة فيها نال تصفيقًا حارًا من الطلاب و الأساتذة معًا .. و تعرف في أثنائها على جوردينا فتاة من أصول أسبانية ولدت بأسبانيا لأب كتالوني و أم روسية . جائت إلى إسرائيل منذ فترة قصيرة لإتمام دراستها ثم التحقت بالعمل أستاذ مساعد بكلية الإعلام بجامعة تل أبيب ، جوردينا بيضاء لكأنها كوب حليب طازج ذات أنف صغير دقيق وعينان واسعتان زرقاء وكأنها قطعة من السماء في صفوها و بشرتها بيضاء وكأن ملامحها نحتت في جدار من ثلج ، شفتاها رقيقة حمراء مثل قطعة فراولة طازجة ، شعر يميل للإصفرار ناعم طويل جدًا تصنع منه ضفيرة غليظة تنسدل إلى أسفل ظهرها حتى نهاية مؤخرتها الجذابة و قدها ممشوق إلى الحد الذي يختطف نظرات الإعجاب من فؤاد ناسك متعبد ، ولعل أجل وصف سمعته هو ما وصفها إياها صالح حينما راودته للحديث أكثر من مرة فرغب عنها فقالت له بطريقة مثيرة هل أنا قبيحة إلى هذا الحد الذي يجعلك تهرب من الحديث معي .. فهزته الجملة و نظر إليها و حدجها بقوة و بنظرة أسف لما فعله ثم تفرس في وجهها قليلاً و قال " أنت حقًا قبيحة إلى الحد الذي تبدين فيه وكأنك فلقة قمر " من ذا الذي يقول عنك أنك قبيحة يا سيدتي الجميلة .. أرجو قبول أسفي لقد كنت مشغول ببعض الأعمال التي هي بإنتظاري بالخارج ..

رواية جديدة إذن ؟

شيء من هذا القبيل ..

أنا جوردينا من أصول أسبانية أو بمعنى أدق أنا خليط أسباني روسي .. أتيت إلى إسرائيل منذ خمسة أعوام و الآن أعمل هنا أستاذ مساعد بكلية الإعلام .

أهلا بك و أنا صالح كاتب .

أعرفك جيدًا لقد كنت في المحاضرة أستمع إليك جيدًا أنت حقًا عبقري .

شكرًا جزيلاً لك يا سيدتي الجميلة ..

لقد زرت القاهرة الشهر الماضي ولى فيها ذكريات رائعة إنها حقًا مدينة ساحرة .. على عكس كل المدن التي زرتها حول العالم إن كل ما فيها يأسر النفس و يجذب الواحد منا من تلابيب قلبه .. لقد اشتريت أشياء كثيرة منها .

القاهرة .. حسنًا حسنًا .

هل انزعجت لذلك ؟

لا لا شئ .. فقط تذكرت شيئًا ما .. لا تشغلي بالك .

هل نتقابل في المساء أنا أعرف مطعمًا غاية في الرقي .. أرجوك اقبل دعوتي هذه .

قبلت دعوتك . هذا الكارت الخاص بي به رقم هاتفي أخبرينى فقط متى يكون ذلك ..

سأهاتفك لأعلمك المكان .. ما رأيك بالسابعة مساءًا ؟

حسنًا .

إلى اللقاء .

هل لي بطلب شيء ما ؟

نعم يا سيدي يمكنك ذلك بكل سرور .

لقد ذكرتي أنك اشتريتي أشياء كثيرة من القاهرة أثناء الزيارة هل تسدين لي معروفًا و تأتين لي بهذه الأشياء .. أقصد ببعضًا منها أو حتى شيئًا واحدا يحمل عبقها ، و الصور أريد أن أر صورها . أقصد صورك هناك أنا رجل مولع بالصور .. أرجوكي أن تحضري لي كل الصور حتى التافهة منها ، عفوًا أقصد التي تبدو أنها تافهة ، لا لا أقصد الصور التي التقطت جزافا أو خطأ دون قصد أو انقطعت فيها الإضاءة مثلاً

حسنًا لك ذلك يا سيدي سآتي لك بالصور و بهدية لك من هاتيك الأشياء.. و في وقت آخر سأريك كل ما اشتريته من هناك في المرات القادمة ..

رجع لبيته و قلبه يدق بشدة و جسده ينتفض بين الفينة و الأخرى بلا سبب ... شعر بفرحة ما تجتاح صدره وتخالج نفسه ريح طازجة لفرحة حلوة أشبه بفرحة الطفل التائه لحظة العودة لحضن أمه ..

جلس على مكتبه و كتب في مفكرته الشخصية " اليوم السابع و العشرون من نوفمبر أشعر في تلك اللحظة بفرحة غريبة تترك مذاقًا رائعًا في جوف قلبي ، أشعر بدبيب فرحة أتخيل أن لا فرحة في الوجود تشبهها ولكن هي أشبه ب فرحة البنت البكر في اليوم الأول لها التي ترتدي فيه حمالة صدر عند اكتشافها للمرة الأولى لذة شعورها بأنها أصبحت كاملة الأنوثة .. ربما خانني التعبير لكنها على كل حال فرحة لا أجد لها وصفًا دقيقًا ، حدث ذلك عندما ابلغتني جوردينا تلك البنت الجميلة التي قابلتها اليوم بمحض الصدفة و ابلغتني أنها

زارت القاهرة و اقتنيت أشياء ثمينة منها وامتدحت القاهرة مدحًا كثيرًا شعرت بأن الكلمات تخرج من قلبها حقيقة دون رياء فأنا أعرف ذلك جيدًا ، إن لفظ القاهرة عندما جرى على لسانها خطف قلبي فجأة ، إن الطريقة التي توددت إلى بها جوردينا أرغمتني على إحترامها ، جميل أن يفاجئك إنسان ما في أول تعارف بينك و بينه بأنه يعرف جيدًا كيف يلعب على أوتار فؤادك .. على كل حال سألاقيها اليوم في تمام السابعة مساءًا ، أتوق لملامسة هذه الأشياء بل أتوق لعناقها و تقبيلها .. ماذا حدث لي لا أعرف وأنا لا أهتم في الوقت الحالي بمعرفة ما حدث لي .. ولكني أعرف شيئًا واحدًا الآن وهو أن الساعة تقارب الرابعة و النصف على أن أستعد لهذا اللقاء العزيز ولأذهب أطوف في قلب المدينة حتى أكون قريبًا جدًا من المكان التي تحدده فلا أضيع على نفسي لحظة واحدة " ..

في تمام الساعة السادسة مساءًا هاتفته جوردينا أخبرته بمكان اللقاء مطعم يسمى داليدا ، ذهب من فوره إليها يسابق قلبه قدميه و برغم السنوات الماضية التي عاشها بقلب تل أبيب إلا أنه لم يتعرف على هذا المطعم رغم إدمانه على التسكع في طرقات المدينة وحيدًا ولربما يقض ليلة كاملة يذهب و يجئ في الشوارع لا يفعل شيئًا سوى التسكع على غير هدى حتى يخيل لمن يتعلق بصره به أنه يبحث عن شئ ما ذا أهمية .. وعندما وصل للمطعم وجده مطعم غاية في الهدوء و الرقة لا مثيل له في هدوئه رغم أن هناك مئات المطاعم الأفخم منه في تل أبيب إلا أن هذا يبدو غريبًا بعض الشئ ربما في زبائنه أو القائمين عليه وربما ديكوره يوحي بذلك ولكنه عندما جلس مع جوردينا في الركن الذي اختارته هي بنفسها و تناول قائمة الطعام هنا فطن إلى ذاك الشئ الغريب أولا هو مطعم نباتي مرتادوه كلهم أناس نباتيون ، غمغم بينه وبين نفسه قائلاً لطالما سئمت هؤلاء النباتيون الأغبياء ولكن لا ضير ليلة وتعدي ، سألته جوردينا هل تقول شيئًا فابتسم ابتسامة صغيرة اتسعت كثيرًا ابتسامته وقت أن نظر بإمعان إلى عينيها الجميلة وكأن عينيها هي من سحبت الإبتسامة

من قلبه ، ثم أردف قائـلاً مذ رأيتك وأنا أتسائل كيف يكون جسمك بهذه الرشاقة التي تكاد تشبه رشاقة الغزلان الآن زال العجب و فطنت إلى السبب ، سألته باسمة وما السبب إذًا الذي عرفته ؟

بالطبع لا تأكل الغزلان إلا في مكان رائع مثل هذا ، ضحكت قائلة مجاملاتك لطيفة جدا وعلى رغم أني لا أحب المجاملات إلا أنك تثير إعجابي بإنتقائك لكلماتك أنت كاتب رائع حتى في مزاحك ..

منذ دخل معها وجلسا وهو يقاوم نفسه كي لا يظهر أشواقه جملة واحدة ولكن رائحة القاهرة الساحرة كانت تتسرب من حقيبة جوردينا فتخالج نفسه وتنفذ رائحتها الأخاذة إلى مسام قلبه وكأنه يستنشقها مع الهواء .. استئذنها بطلب النوع الذي تفضله ليأكل هو منه أيضًا فهو لا يعرف شيئًا البتة عن مثل هذه الأكلات التي لم يطرأ على ذهنه يومًا أن يتناول أيا منها جئ بالعشاء فأجهز عليه بسرعة متزرعًا بأنها طريقته في الأكل عمومًا، ولكنه كان يخفي في قرارة نفسه ما فضحته أشواقه و ظهر ذلك جليًا في التماع عينيه فهمته جوردينا تمامًا ، لكنه حاول كتمان هذا كثيرًا وسأل عن سر تسمية هذا المطعم بهذا الإسم فإن داليدا مصرية في الأصل على حد معرفته .. فقالت له بالفعل داليدا مصرية الأصل لكنها كانت عالمية الهوية ، فقدمت أغان بلغات مختلفة غير العربية فغنت بالفرنسية و الإيطالية و اليابانية و لغات أخرى عديدة و أيضًا غنت بالعبرية .. لذا هي تعتبر هنا في إسرائيل منبرًا للغناء و معبدًا للموسيقى، إن داليدا رمزا مهمًا في اسرائيل لا ينكره أحد هنا يتشدقون بأي أحد و أي شيء يوثق هويتهم ويمنحهم حق التاريخ ... نعم أنتِ محقة جدًا في ذلك ..

انتهوا من العشاء النباتي الرقيق والذي لم ترق له أمعاء صالح بطبيعة الحال فهو يحب الأكلات التي شب عليها ، وبعد تبادل نظرات و حكايات عن أشياء مختلفة في النواحي العلمية و العالمية و خاصة الأدبية منها .. وحينما جف

الكلام بعض الشئ مدت جوردينا يدها بخفة وسلبت شيء من حقيبتها وقدمتها إليه فكانت علبة غاية في الروعة حجمها متوسط لكن روعتها كانت في حملها لطابع القاهرة القديمة ، علبة من خشب مغطي بالقطيفة ومطرزة تطريزًا ينطق بمصريته ، تناولها وقلبه يطفح سعادةً وحبورًا ، فتحها والشوق يجذبه لمعرفة ما بداخلها ، سلسلة من فضة تحمل رسما قرآنيا في القلب المتدلي منها و قلمًا فرعونيًا قد من نحاس ، رأسه هي صورة من رأس توت عنخ آمون الجميلة .. قبلهما واستنشق عبيرهما ريا لظمأ قلبه لرائحة القاهرة التي افتقدها أيما إفتقاد ... شكرها جزيل الشكر فأخرجت له لفافة من ورق البردي المصري وفكت رباطها وقالت ها هنا يمكنك أن تكتب لي شيئًا فأنا أحب أن أحتفظ بكلمات مكتوبة عن كونها مسموعة ، انقش كلماتك هنا أيها الكاتب العبقري ، ..

مرت الايام وازدادت الصلة بين صالح و جوردينا ، ذهب لبيتها و التقط الصور التي أخذتها في ضواحي القاهرة فكان يصيح ها هنا أكلت في هذا المكان وهنا جريت و هنا جلست ، هذا المطعم نعم أعرفه إنه أفضل مطعم شعبي يقدم الكبدة كنت دائم المرور عليه حتى صرنا أصدقاء فكنت لا أخش الذهاب لتناول الغداء عنده وأنا لا أملك قروشًا في جيبي ، أعتقد أن له حسابًا عندى إلى الآن .. تناول صورة أخرى لها و بيدها كوب عصير فهتف يا رباه سوبيا الرحماني كيف وصلتي لهم إنه مكاني المفضل لتناول السوبيا الجميلة كنت أتسابق أنا و عبدالعزيز صاحبي في تناول أكواب السوبيا فنشرب حتى ننتفخ ، آه شارع المعز إن لي ذكريات في هذا الشارع بعدد كل بلاطة في الأرض و بعدد كل الذين يزورونه كل يوم للمرة الأولى فيأسرهم كما أسرك ... دخلت جوردينا قلبه من أوسع الأبواب ولعبت كما قال على أوتار الفؤاد بحرفية لم يعهدها فغرق في حبها حتى قمة رأسه..

وكانت لعبة الصراحة التي دأبا على لعبها لها الفضل الأكبر في معرفة كل شيء عن بعضهما البعض .. فأسرتهما تشابه حكاياتهم .. خاصة في اللجوء إلى إسرائيل و إن اختلفتْ التفاصيل إلا أن ما جمعهما بإسرائيل هي المصلحة

.. على حد تعبير جوردينا حينما قالت له أنا أتيت إلى هنا من أجل المصلحة لا حبًا في إسرائيل التي يكرهها طوب الأرض .. لكني أنا شخصيًا وجدت مصلحتي هنا على هذه البقعة المكروهة من الأرض فوليت العالم ظهري وما أفادني ذاك الطوب بشيء لأتباكى عليه خاصة بعد إنفصال أمى عن أبي و رجوعها لروسيا ، الكل يحب الرجوع لموطنه في وقت ما يظن أنه تشبع من الغربة و فاض به كيل الحنين ..

لمعت عبرة في عينه وقال آسفًا الكل يحب الرجوع إلي موطنه ولكن ليت الكل يقدر على الرجوع ، فها أنا ذا لا قدرة لي على الرجوع لموطني الذي أحب ، فجرت عليه و احتضنته وضعت رأسه على صدرها وقبلت رأسه قائلة ها هو موطنك يمكنك أن تتخذ من حضني مرتع كبير و من قلبي موطن لك تعود إليه متى شئت وسترشدك شفتاي لطريق العودة وستصحبك عيني أنى تريد .. ثم بادرت بتغيير لهجة الحديث فقالت أم أن حضني ليس بكاف سيدي .. فبادرها بالمزاح إن سيدك يا سيدتي يطمع في المزيد من أحضانك الدافئة التي لا غنى له عنها ... فأنهال كل واحد منهما على تقبيل الآخر .. لم تكن قبلات عادية ولكنها كانت إلتهام كإلتهام من أضناه الجائع لطبق من اللحوم الطازج ..

أمسك بوجهها بين راحة يديه وقال وهو ينثر قبلات رقيقة على أرجاء وجهها الملائكي هل تتذكرين يا جوردينا مطرب مصري جميل يدعى محمد عبدالوهاب حكيت لك عنه في السابق ؟

نعم أذكر ذلك جيدًا ولكن ما شأنه بما نحن فيه الآن؟ ..

فابتسم وقال لها إن له كوبليه غنائي وصف في جملة بسيطة ما نحن بصدده الآن ..

ما هي قلها لي ؟

لا .. لن أقول .

سأقتلك إذا ؟

تفضلي اقتليني كما تحبي و بأي طريقة تشاء ..

سأقتلك بقبلتي ..

هذا تقريبًا ما قاله عبدالوهاب ..

قلها لي أرجوك ..

حسنا .. لقد قال " فحرقنا نفوسنا في جحيم من القبل " ..

رباه .. ما أبلغ هذا التعبير ..

إن التعبير تناقص جماله عندما ترجمته لك إلى اللغة الانجليزية التي تربط بيني وبينك .. لكن لو تعرفين العربية لأذابك التعبير يا جوردينة قلبي ..

كفى عليّ أني ذبت فيك وهيا بنا نحترق في جحيم القبل اللذيذ ، و دعني أستبيح شفتاك ..

عام من الحب .. كان نتاجه رواية أخرى جميلة صدرت للمرة الأولى التي يكتب فيها بالإنجليزية بعد تمرسه جيدًا للغة فكانت روايته الأعظم " دفتر العشاق " .. حفنة من لذائذ الجمل و التعبيرات و فيضا واسعًا من الرومانسية و تفاصيل الغزل و وحيًا من الجمال حين يسود ولكن بطل الرواية كان يخفي حنينًا إلى شيءٍ ما بعيدًا عنه ود لو أوتي له به فيغرق في سعادة لا تريم ...

غزت الرواية الأسواق العالمية و تم استدعائه في محافل أدبية و جامعات حول العالم لمناقشة روايته و الوقوف على هذا الخيال الرائع و هذا التناول الشيق و الأسلوب الماتع .. وتم تسريب الرواية لمصر ومن ثم نزلت طبعات قليلة تناثرت في أرجاء مصر و تناوب عليها القراء ..

obeikan.com

جرى اتصال هاتفي بعبدالعزيز الملواني من الأستاذ محمد عبدالعال مالك دار النشر صاحبة آخر رواية مصرية لصالح والتي سجن بسببها ، أخبره برغبته في تناول الشاي معه فكان اللقاء بعد العصر في مكتب الاستاذ محمد تناولا الحكايات و أخبار البلد و العالم و العمل .. ثم جائت سيرة صالح فبادره عبدالعزيز بأنه لا يعرف عنه شيئًا ولا يحب أن يعرف فقد انقطعت صلته به تمامًا منذ أن حدث ما حدث .. فأبدى الاستاذ تعاطفًا لصالح وقال لا تنس ما حدث له إننا سببناه و اتهمناه بتهم شنعاء فقط لأنه لم يعد له طاقة بتحمل أنواع العذاب و البلى التي أصابته ، كنا نراه يسحق دون أن يهتز لنا جفن إلا قليلاً من تعاطف نسكبه لإرضاء ضميرنا الميت .. لم نضع أنفسنا مكانه يومًا ؟ بل لم نسأل أنفسنا سؤالاً حقيقيًا لماذا أقدم على فعل ذلك ؟ ما الذي دفعه ؟ .. وكلنا نملك الإجابة لكننا جبناء لا ننظر للحقائق إلا من منظورنا نحن ..

دمعت عين عبدالعزيز وقال أسفى عليه أنه القى بنفسه في بوتقة الشياطين كان يمكنه أن يصبر و يثابر هنا وسيكون يومًا ذا شأن ..

قاطعه الاستاذ .. أقسم لك أنه لو جلس هنا عامًا واحدًا ما كان يقدر على إطعام نفسه وسوف يندثر مع الهواء و تذروه الرياح تمامًا كما يفعل الهندوس مع جثث موتاهم فيحرقونها ثم يطحنون عظامها المحترقة ثم يذرونها في الرياح .. صدقني كان سيموت قبل أن يتمم عامًا واحدًا آخر ..

مد الأستاذ يده في درج مكتبه و أخرج رواية إنجليزية ووضعها بين يدي عبدالعزيز قائلاً هذا " دفتر العشاق " آخر إبداعات من فقدت مصر قلمه .. اقرأ وترحم على صديقك بل ترحم على نفسك و علينا وسل نفسك كيف فرطنا في مثل هذا وكيف لفظته مصر للخارج إن مصر تكاد تكون موهوبة في لفظ أبنائها كما قال الراحل العظيم جمال حمدان.. و سل نفسك ماذا قدم له من راحة و مساحات للإبداع كي يصل لشئ ثمين مثل هذا ..

هذا العمل جدير بالفوز بجائزة نوبل إن أرادوا...

انصرف عبدالعزيز و في يده الرواية تناوب عليها فقرأها في يومين ثم عاد أدراجه إلى محمد عبدالعال وقال له ماذا تريد أن تفعل .. قال تواصل مع صاحبك وسله عن نسخة بالعربية من توقيع يده لا مترجمة ..

لم أتواصل معه منذ سنوات .

لكن الآن الأمر يقتضي ذلك ..

لما ؟

لابد أن يقرأ الناس هذه الرواية ، بل لابد أن يقرأ الكتاب هذه الرواية و أن تكون بمثابة مرجعًا لعشاق الكتابة قبل عشاق الهوى ..

ما الفائدة من خوض غمار تجربة مثل هذه ؟

أولا من حق بلدتك عليك أن تدلها على كل بقعة ضوء تهب من أي مكان بالعالم ولما كانت هذه البقعة نبتت في الأصل من رحمها فهذا أوعز بالأرشاد و التضحية في سبيلها .. ثانيًا من حق صاحبك عليك أن تفتح له نافذة جديدة على بلده الأم وأظنه لن يتردد لحظة في التعاون خاصةً مع إصراره على إظهار حنينه إلى موطنه في كافة أعماله ..

حسنا ، أوافق .. ولكن كيف أصل له ؟

الأمر غاية في الخطورة و الصعوبة و لكن الطرق تشق وتمهد حينما نريد الوصول ..

حسنا دعنا نفكر في طريقة ..

أفضل طريقة هي تقفي أثره ومعرفة أين يذهب ومتى يسافر ومن يزامله وقتها سنعرف الطريق إليه جيدًا ..

obeikan.com

انصرف عبدالعزيز بعدما اتفقا على التفكير ليل نهار في كيفية الإتصال بصديق العهد القديم ..

على ضفة العالم الآخر كان صالح يعد نفسه للزفاف من جوردينا ، و بالفعل تم الزفاف في حفل بسيط ضم القليل من المعارف و الأصدقاء في الوسط الأدبي و العلمي لكلا العروسين و عقد الزفاف على الشريعة الإسلامية كما هي رغبة صالح فتم ذلك في مسجد حسن بك وهو مسجد قديم شيد على الطراز العثماني في أحد الأحياء القديمة بين تل أبيب و يافا عام ١٩١٦ ، ولم تمانع جوردينا قط .. هي تريد صالح بأي طريقة كان و بأي أسلوب يحب و على أي شريعة يختارها المهم هو أن تبقى بجانبه .. وحينما يكون الحب قاسم مشترك بين قلبين فلا تحدثني عن الخلاف ، لأن من اتفقا على شيء روحي مثل الحب يصعب عليهم أن يندرجا للخلاف على صغائر و تفاهات دنيوية ...

تناقلت الصحف خبر الزواج بإسهاب و طفقت تحكي قصة العروسين ، كيف كان اللقاء ومتى اجتاحهم تيار الحب و كيف كان حفل الزواج وتناول القصة ملايين حول العالم وبالطبع كانت للقاهرة نصيب من المتابعة ومن بين المتابعين كانا عبدالعزيز و صاحبه يتابعان عن كثب بغية الوصول لطريقة ما للوصول لصديق العهد القديم ، إذا هي جوردينا لا غيرها ، نحتاج فقط لمن يعمل في جامعة تل أبيب أو يقطن هناك بأي طريقة ، لم يستغرق الأمر طويلاً حيث علم من خلال عيونه الصحفية المتربصة بالأخبار في تل أبيب أن يعرف أن صديقه سيسافر بعد أيام إلى تايلاند لقضاء شهر العسل فقرر بالإتفاق مع صاحبه أن يذهب بنفسه إلى تايلاند و يلتقى بصديقه وجها لوجه ومن ثم يطلب منه الرواية باللغة العربية ، حزم أمتعته و عزم على السفر بحجة إراحة أعصابه وفي غضون يومين كان يقيم في نفس الفندق الذي نزل إليه صديقه ، سأل عليه كثيرًا وتأكد من وجوده وظل يتتبعه يتخير اللحظة المواتية لينفرد به ، إلى أن حانت اللحظة وكانت ليلاً ريثما يتجول في الفندق يبدو أنه قد نسي شيئًا ما ، فناداه قائلاً كيف حال كاتبنا الكبير ، فالتفت صالح لمصدر الصوت

فوجد أمامه صديق العمر ، تجمد مكانه ولم يعرف كيف يرد جوابه ولا ما الذى رمي به في طريقه مرة أخرى وهنا في تايلاند ؟

عشرات الأفكار تدور برأسه و أغلبها كان سوداويًا إلى الحد الذي ظن فيه أنه أتى لقتله .. تسمر جدًا و كأن الكرة الأرضية كلها تدور إلا هو فبات وكأنه مركز الأرض .. فبادره صديقه بابتسامة عريضة وفتح ذراعيه مستقبلاً إياه مناديًا أشواق الماضي كاشفًا النقاب عن مشاعر الأخوة الكامنة في الصدور ، فهرع إليه صالح محتضنًا و مقبلاً رأسه ثم طفق يبكي و ينتحب إنتحابًا رهيبًا يمزق القلب ولم يستطع أن يرفع عينه وينظر لعين صديقه صراحة ، إنتابته لحظات خجل كبيرة و شعر بالعار يشق نفسه نصفين ، تمنى لو انشقت الأرض وغار في باطنها ثم أغلقت عليه فذاب وكأن شيئًا لم يكن .. وجهه منكسر و جبينه يندى خجلاً و عينه تذرف دموعًا أليمة و نحيبه يمزق أوتار القلب ويزلزل كيان صاحبه الذي انتحب هو الآخر لانتحاب صديقه واحتضنه مرة أخرى واخذ يردد هون عليك يا أخي هون عليك ، الذنب ليس كله ذنبك وحدك .. هون عليك ..

جلسا والتهموا الحكايات إلتهاما موحشًا كالتهام الأسد الجائع لفريسته السمينة ، فلم تظبط لحظة واحدة انقطعا فيها عن الحديث اللهم إلا لأخذ رشفة قهوة .. باح صالح لصديقه بكل شيء تقريبًا ، إن المسكين عانى كثيرًا من أجل الوصول لما هو عليه الآن ، حتى إسرائيل لم تتركه تلك التي قدم لها الكثير بإنتسابه إليها و تصديره للحديث باسمها لم يك هذا كافيًا فقد حاولوا كثيرًا لي ذراعه وعرض عليه الدخول لمصر تحت حمايتهم وهو ما كان يأباه ، يأبى أن يكون دمية في أياديهم يلعبون بها و يستثيرون أعصاب المصريين بالتلويح بها .. ثم يحمونني من أهلى تلك إهانة بالغة لم أقبلها .. وما أخرسهم عني هو أني قلت لهم اسدوا لى خدمة و اقتلوني ... فعرفوا أني صعب المنال .. ثم أنني ما دمت أكتب فهذا نفع لهم و تصحيحًا لصورتهم التاريخية فيصدرون للعالم صورة بيضاء عن ماهيتهم..

أنهى عبدالعزيز الحديث بإخباره بأنه يريد أن يكتب له نسخة عربية للرواية الأخيرة " دفتر العشاق " ..فبادره صالح بابتسامة ذات مغزى قائلاً " وهل تظن أنني لم أكتبها بالعربية أولاً قبل أن أعيد نقشها بالإنجلزية .. نعم أنا كفرت بأشياء كثيرة كما قلت لك سابقًا يا عزيزي ولكن اللغة لم تكن من هاتيك الأشياء أيضًا التي كفرت بها و تنازلت عنها ..

سأبعثها لك بخط يدي حالما أعود إلى بلدة الشياطين ..

بخط يدك أيضًا .. ألا تملك نسخة مطبوعة .. ألم أقل لك منذ زمن بأن لا طاقة لدي لفك طلاسم خط يدك الأشبه بخط القطط ..

- ضحك ملئ شدقيه وقال ألم أقل لك منذ زمن أيضًا بأن القطط لا تكتب..

أبلغه عبدالعزيز قبل انتهاء اللقاء بأن يحذر الأتصال به فالكل متربص ، ولكن لابد أن تصل لي الرواية ومن ثم سيعرضها محمد عبدالعال على مسئولين مثلاً أو سيحاول نشرها بأى طريقة فهو يرى أنها لابد أن تصل للناس إنها حقًا رائعة .

-وأنت يا صديقي ما رأيك ؟

- رأيي أنت تعرفه جيدًا أنت كاتب بارع لا جدال في ذلك ..

- حسنًا ستصلك في أقرب وقت ، ولكن فلتريني وقتئذ كيف يمكنك نشرها في مصر بعد ذلك .؟

مر شهر العسل ، زاد الحب .. وتعمقت الصلة بين جوردينا و صالح وشيئًا من فرح بهيج خالج نفسه و سرت دماء الشباب فيه من جديد فتغلبت على وهن السنين ، عظيم الحب في كل شئ ما أعظمه أن له قدرة عجيبة على إحياء من اماتتهم التعاسة ودفنهم الكدر في بوتقته واحتضنتهم قبور الحزن ..

رجع لعمله وأخذ يكتب من جديد قصصًا جديدة بروحًا أكثر تفاؤلاً وحبًا فكانت كلماته تقطر حبًا و حنينًا وتبعث على الدفئ حتى في ربوع الشتاء المثلج حتى يخيل للقارئ وقتها أنه ارتدى معطفًا من كلماته فدب الدفئ في حناياه ... إن تايلاند و شهر العسل و جوردينا قبل كل شئ قد بعثوه بعثًا جديدًا فأقبل يكتشف بل و يخترع مفردات جديدة منتقاة بعناية جيدة و بروح مشرقة و قلبًا يطفح سعادة وحبًا وسلامًا ..

أخبر جوردينا بأنه يريد أن تسدي له خدمة و تهبط للقاهرة ، فقبلت دون تردد خاصة بعدما عرفت أن الأمر لن يتعد يومًا واحدًا بل نهارًا ..

فدبرت أمورها و غادرت تل أبيب متوجهة للقاهرة في صبيحة يوم فاستقبل صدرها هواء القاهرة مستنشقًا إياه فعبقت صدرها به كثيرًا وقعت في غرام القاهرة هي الأخرى من كثرة حكي حبيبها عنها رغم أنه في الأصل ولد في الإسكندرية إلا أنه يعد ولادته الحقيقية و فرحه وألامه الحقيقة لم يتجرعها إلا في القاهرة فهو ابنا شرعيًا لها دون غيرها فيها تعلم وعلى جدرانها نقش أول حروفه ومن شوارعها قفزت الحكايات إلى رأسه فأصبحت مترعة بالشخوص و الحكايا و المعاني ..

توجهت كما قال لها إلى فندق شيراتون وأكدت حجزها لثلاث ليال لتبدو الزيارة وكأنها عادية كسابقتها مجرد سائحة من المتيمين بالقاهرة ، ثم تركت حقائبها وبدأت تدور في القاهرة من مكان لمكان وذهبت للغداء عند ملك الكبدة بوسط البلد كما أوصاها وأخذت معها ساندوتشات كبدة كثيرة معها ثم ذهبت للفندق كي تستريح كانت الساعة وقتئذ تناهز الواحدة و النصف ظهرًا ، نصف ساعة وتبدأ ساعة الذروة بقلب القاهرة.. خرج خلسة للشارع استخدمت هاتف من الشارع واتصلت بعبدالعزيز بكلمات مقتضبة قالت له دفتر العشاق معي أين أقابلك بعد نصف ساعة من الآن ، اتفقا على أنها ستقابله في القلعة فهي

تعرفها جيدًا وقد زارتها منذ فترة ، وحددت له المكان وكيف سيعرفها من ردائها و اسمها .

انطلق من فوره إلى القلعة ، وصل في الثانية و الربع ، ودلف إلى الداخل ومن ثم انسل إلى مسجد محمد على وعند الضريح وجدها آية في الجمال و الأناقة و الإحترام فهي ترتدي فوق ملابسها شالاً مزركشًا يغطى رأسها وباق جسدها إحترامًا للمسجد ، ناداها فبادرته بنظرة باسمة هادئة ، كلمات قليلة ، ناولته في اثنائها الرواية ، فأمسك بها باسمًا واحتضنها ، وقال لها بلغي صاحبي السلام وأرجوكي أن تعطيه هذه الهدية البسيطة إسطوانة بها أغان متنوعة لمطرب يحبه جيدًا .

فقالت له المطرب محمد عبدالوهاب تقصد ؟

فخالجته لحظة إندهاش وقال لها إنك تعرفين عنه الكثير إذا..

قالت وربما أكثر مما تعرفه أنت شخصيًا عنه رغم روح الأخوة الحقيقية التي تسري بينكما ، أنني أشعر في قرارة نفسي وكأني مصرية خالصة بسبب كل ما أسمعني إياه حبيبي عن مصر وما زال يلقي على مسامعي فيضًا من الحكايات التي تربطه بمصر ..

أدت جوردينا المهمة .. عادت أدراجها وصعدت للفندق وقبل الصعود مرت على الريسبشن فأخبرتهم بأن خطب ما وقع لها و أنها لابد أن ترجع اليوم لتعود في وقت لاحق حالما تسوي أمورها ورسمت على وجهها أمارات الضيق جراء ما وقع لها .. غادرت بالفعل الفندق بعدما انهت حجزها وتوجهت للمطار و غادرت القاهرة ، عادت لتل أبيب ، وجدت حبيبها غارقًا في قلقه وخوفه عليها دخلت البيت كانا قد إختارا بيتًا جميلا تدور الخضرة حوله ،مكون من طابقين الطابق الأول فسيح جدًا لاستقبال الضيوف و مشاهدة التلفاز و القراءة و المطبخ و الحمام بإختصار كل شئ دون النوم يقوما به في

الطابق الأول ، أما الطابق الآخر فهو غرف نوم فقط .. دخلت خلسة دون أن يشعر بها علمت أنه بالطابق العلوي .. أخرجت أسطوانة عبدالوهاب و أدارتها فبدا النغم الخالد يطل برأسه بقلب البيت وقبل أن يصدح صوت عبدالوهاب الرخيم كانت جوردينا تعد طبقا من السلطة الخضراء وتضع في طبق آخر ساندوتشات ملك الكبدة التي أحضرتها خصيصًا من مصر ،

بالطابق العلوي كان يجلس صالح يلوم نفسه على أن ألق بحبيبته إلى فوهة النيران .. ما كان يجب عليها القبول بل ما كان يجب عليه أن يعرضها لهذا الخطر قط ، وفجأة رنا إلى مسامعه صوت يقول " بلاش تبوسني في عنيا دي البوسة في العين تفرق " ..

- إنه صوت عبدالوهاب ما الذي اتى به إلى هنا ؟

ريثما يحاول إدراك ما يحدث ومن أين يأتي مصدر هذا الصوت ، سمع صوت آخر يردد بلكنة عربية مكسرة قائـلاً " ملك الكبدة " ...

فهرع من فوره يقول صوت عبدالوهاب ممكن أن أخطئه لكن صوت حبيبتي ولو تحدثت بالهيروغليفية لا يمكن أن أخطئه أبدًا ثم إن رائحة ساندوتشات ملك الكبدة تخترق مسامي .. رباه .. اللهم أنني أسالك أن لا يكون هذا كله مجرد حلم ..

وهبط للأسفل ليجدها هي دون غيرها مليكة قلبه تقف متشحة بالجمال تنطق حلاوة و نضارة و تفرز آيات عشق معقود بنواصي إبتسامتها الريانة ..

- أنا و عبدالوهاب و ساندوتشات ملك الكبدة بإنتظارك يا سيدي فهلا تكرمت للإنضمام إلينا ؟

- ما الجنة إذا إن لم تكن هكذا ؟

- هلم إلى الجنة قبل أن تبرد فأنا لم أكل منها إلا مرة واحدة اليوم ما الذي يصنعه ذاك الرجل لتبدو ساندوتشاته بهذه الحلاوة ؟

هبط للأسفل وكأنه يطير فوق أدراج السلم ليمسك بمجنونته قبل أن تفلت منه وهي تنثر ضحكاتها ، فامسك بها واعتصرها في حضنه ولم يتركها إلا بعد أن جادت عليه بقبلات لا حصر لها ومن ثم حملها كما تحمل طفلة صغيرة ، وذهب لتناول ما جادت به القاهرة عليهما ، فالتهم الساندوتشات بنفس الطريقة التي يلتهم بها شفتي جميلته يغمغم من فرط اللذة ، وصوت عبدالوهاب يزف جلستهم ، انتهوا من الأكل و قالت له خبرني وقتما تأتي الأغنية التي يقول فيها عبدالوهاب " فحرقنا نفوسنا في جحيم من القبل " .. أطلق ضحكة عالية وقال لها حتمًا سأخبرك بذلك بشرط أن تشاركيني وقتها الإحتراق في ذاك الجحيم الممتع..

انقضت أيام أشهى من العسل ولم تكن الكتابة هي الثمرة الوحيدة التي نضجت تحت تأثير جوردينا ، بل إن ثمرة هذا الحب الطاهر جادت على الحبيبين بنطفة نمت في أحشاء جوردينا ، فاشرق وجه صالح أيما إشراق ، بعث من جديد فلطالما آمن بالضياء الذي ينبعث من وراء خيام الظلام فيطل برأسه كاشفًا عن وجهه البراق ، كان ينتظر ذاك الضياء و يروم هذا البعث .. حسنًا سيصبح أبًا عما قريب .. قال لها لم أكن أعرف شيئًا على هذه الأرض حقًا يستحق الحياة سواك الآن سيشاركك هذا الحق شيئًا آخر من رحمك .. فضحكت لهذه المزحة اللطيفة و قالت له أنت عندي بالحياة وما عليها بما فيها أنا و هذا النائم في أحشائي ...

مرت شهور الحمل صعبة مريرة على جوردينا كادت تفقد الجنين أكثر من مرة ، دب القلق في نفس صالح كثيرًا .. وصار هذا هو همه الشاغل ، حاول الإنفلات من بوتقة الأوهام و جوقة الكوابيس اليومية التي لم تعد ترحمه فسرقت منه نومه وراحة باله ، حتى تمنى عدم وجود هذا الحمل من الأساس ،

وبالفعل طرق أبواب الأطباء يسأل عن طريقة ما للتخلص من هذا الحمل و في تل أبيب كما في كافة أنحاء العالم يمكنك بالأموال أن تشري نفوس غالبية الناس، فوجد الطبيب المناسب للتخلص من هذا العبئ كانت جوردينا وقتئذ في شهرها الرابع فلما سمعت منه هذا رفضت بشدة وقالت كيف سمح لك خيالك بالسباحة بعيدًا إلى هذا الحد الممنوع ، وطفقت تبكي بكاءًا مريرًا مختلطًا بدموع الألم الجسدى التي تتعرض له وفوقه الألم النفسي التي تعرضت له الآن ، احتضنها وهو يعتذر لها ويتأسف عما بدر منه وقال إنني فقط أخاف عليكي . فأنا أحبك أنتِ لا سواك .. دعيني أبلغك بمنتهى الصراحة أنا لا يهمني الجنين بقدر ما تهمني أنتِ ، أنا لا أعرف من في باطنك لم أعاشره لم يقاسمني حياتي أفراحي و أتراحي لم يكن يومًا سندًا لي و ظهرًا لي وقتما انكسر ظهري .. لكنك فعلتي .. أنا بدونك لا شيء .

مع متابعة الأطباء و الدوام على العلاج بدأت حالة جوردينا آخذة في التحسن ، نضرت بشرتها تغلبت على تعبها و استطاعت مفارقة السرير بشق الأنفس .. بعودتها عادت الحياة لقلب صالح من جديد دبت فيه روح الأمل و ترعرعت رياحين التفاؤل في نفسه و أشرقت أمارات الرضا و الإبتسامة في صفحة وجهه .. مر الشهران الخامس و السادس و الأمور تميل إلى الإستقرار .. ولكن بمنتصف السابع من حملها سرعان ما عاودها المرض مرة أخرى فأصفر وجهها اصفرارًا يندر أن تجده في وجوه الأحياء فتم إحتجازها في المستشفى ، وبدا التشخيص المبدئي يؤكد وجود خلل ما في كرات الدم إنها مصابة بأنيميا حادة جدًا فتم إمدادها بأكياس من الدماء والمحاليل .. في هذه الأونة زادت وطئة الآلام جدًا وكانت تحاول جاهدة إخفاء تأثير ذلك على وجهها خاصة أمام حبيبها ، لأنها تعرف أن آلامها تحرقه وتكويه كيًا إلا أنها لم تعد قادرة على أن تخف توجعها فانفجرت باكية في تشنج انخلع له قلب صالح الذي حاول أن يبدو متماسكًا ، فاستدعى كل ما بداخله من قوة وبأس كي يبدو أمامها بثبات في ظاهره عدم التصنع أما باطنه فالله وحده يعلم أنه هش كآخر

ورقة في شجرة جافة تقف وحدها في مهب الريح في يوم عاصف تبلغ شدة عواصفه أن الجبال تطأطا رأسها معلنة بذلك إنسحابها أمام سيل العواصف المتتابع .. فماذا تفعل الشجرة المسكينة و ما الذي يشد عضد ورقتها الأخيرة المسكينة ..

طفقت المسكينة تبكي بكاءًا موجعًا دافنة رأسها في صدر حبيبها وهي تأن أنينًا مؤلمًا يحاول صالح تهدئتها مقبلاً رأسها محاولا التماسك إلا أن عبرة تلألات في عينه فقتلها في مهدها خوفًا من أن تكون هي الباب الذي لو انفرج يسكب من خلاله آلاف الدمعات ، جائت طبيبة فهدأت من روعها ووضعت لها في المحلول حقنة مهدئة كي تنقذها من تشنجها وبكائها المستمر .. نامت المسكينة فنظر صالح في وجهها فوجدها نحلت ووجها لا يكاد يعرف من شدة ذبوله و اصفراره بدت المسكينة أقرب للموت منه للحياة .. وخرج من غرفته يجتر ألمه وأغلق باب الغرفة فلم تستطع قدماه حمله فخر راكعًا ووجهه للحائط يدفن رأسه في الحائط باكيًا بصوت عالٍ متشنجًا ينوح كالأطفال في بكاء مرير وهو يردد حبيبتي يارباه .. اجتمع حوله كثيرون محاولين تهدئته كان في حالة يأس شديد فأمسك بيد الطبيب المعالج لزوجته وقال له أنا لا أريد هذا الجنين حقًا لا أريده فلتخلصنا منه الآن .. أنا أريد زوجتى فقط لا أريد الإنجاب أنا لا أحب الأطفال .. أنا لا أحب أحدًا سوى زوجته ردها إليّ كما كانت . خلصنا من هذا الكابوس أرجوك ..

في اليوم التالي بدت حالة جوردينا في تحسن نسبي ، أفاقت جوردينا من غفوتها فكان الوقت فجرًا وبدت تشعر بأنها تعافت ولكن جسدها لم يصدقها القول وبدت أوهن من خيوط العنكبوت بينما تسرب من رحمها دماء بدت طفيفة و سرعان ما أغرقت ملابسها و سريرها ففزعت الممرضة و استدعت الأطباء وبدوا في حقنها لوقف هذه الدماء المتدفقة إنه نزيف إذا .. يبدوا أنها ولادة في غير موعد .. قال كبير الأطباء استدعوا لي زوجها فورًا .. كان صالح في ذلك الوقت يغفو منهكًا بعدما خارت قواه فسقط كالمغشي عليه فوق

كراسي الانتظار .. استدعوه أبلغه الطبيب بضرورة دخول زوجته للعمليات فورًا قبل أن يفقدوا الجنين .. أبلغه متوسلاً لا يهمني الجنين هي وحدها من تهمني تذكر هذا ..

في هذه الأحيان طلبت جوردينا سريعًا من الممرضة التي تلازمها أن تأتي لها بورقة و قلم و مظروف فهي تود إرسال خطابًا مهمًا للتو ، و بالفعل أهدتها الممرضة ما أرادت ، فطفقت تكتب شيئًا ما وهي ذابلة العين محمرة الجفن .. ولما انتهت منه ، أهدت الخطاب للمرضة وأوصتها أن تضعه في يد زوجها صالح بعد دخولها للعمليات ..

أنهى صالح الإجراءات ومضى تعهدًا بتحمله المسئولية كما اقتضت لوائح المستشفى .. ولما رجع وجد زوجته غارقة في سباتها المرضي ، فقبل جبينها و يدها و دمع فؤاده وأخذت الدموع تتقافز من عينيه وسرعان ما اتى الممرضون و أخذوها .. فذهب معهم حتى غرفة العمليات و استوقفوه بالخارج ودخلوا بها .. نصف ساعة مرت وكأنها دهرًا كاملاً .

وصالح واقفًا على قدميه يتناقل من مكان لآخر ذهابًا و إياباً لا يركن إلى مكان واحد ، حتى صادفته الممرضة التي أوصتها جوردينا بنقل الخطاب إليه فبادرته بنظرة حزينة و قالت له تفضل هذا الخطاب لك من زوجتك .. تعجب كثيرًا وقال إنها بالداخل هل خرجت ؟ فأردفت قائـلاً لا هي كتبته قبل أن تدخل و أوصتني بأن أهديه لك كان ذلك قبل أن تغف الإغفاء الأخير لها وهي في غرفتها ...

تناول الخطاب الذي كتب باللغة الانجليزية وبدا الخط مهزوزًا جدًا والورقة يطفح منها روائح الدم و الحزن و العذاب حتى لتكاد تنأى عن حمل الكلمات التي نقشت بداخلها فطفق يقرأ في نهم وكرب شديد

" إليك يا حبيبي .. لعل كلماتي تبدو هاذية و غير مرتبة فلتسامحني فأنا لا أعرف كيف أتبين نفسي في وسط هذا الكم الهائل من الضباب المرضي و الآلام الموجعة .. فلتسامحني يا حبيبي .. يا أخي و أبي و صديقي و زوجي ..

يا حبيبي الوحيد .. لم أتعهد كتابة خطابات وداع لكنى أشعر الآن وكأن رسالتي في الحياة قد انقضت ، وقد تلخصت رسالتي في مهمة واحدة ألا وهي رسم الإبتسامة على وجهك يا حبيبي فيما قدر لي من عمر أعيشه في كنفك.. وهذا حسبي من حياتي كلها .. وأتمني أن أكون وفقت إلى ذلك ، كما كنت أتمنى أن يمدني الله بعمر مديد لأطيل الإبتسامة على وجهك الرقيق يا حبيبي ، سامحني يا حبيبي ليت الأمر بيدي ، ولكن الحياة دائمًا ما تقضي على الأفراح بالنقصان ، إنها إرادة الله يا حبيبي فحاشاك أن تقنط أو تسخط أبدًا فلتذعن لإرادته كما أذعن المسيح للمصائب التي صبت فوق رأسه وقابلها بإبتسامة هزمت أعدائه وكسرت ظهر كارهيه .. فلتذعن يا حبيبي لإرادة الله ولتحمده دائمًا كما حمده نبيك محمد عند وفاة زوجته خديجة التي كان يغرق في حبها حتى قمة رأسه كما اخبرتني ، يكفيني أن تتذكرني بالخير كما تذكر محمد خديجة حتى آخر عمره وهو يقول خديجة خديجة خديجة .. لطالما حكيت لي هذه القصة كثيرًا إلى الحد الذي وددت لو أمكنني أنا المسيحية الحنون رؤية خديجة وضمها إلى صدري كثيرًا ثم أقول لها بأني أحبها ، نعم أحبها كثيرًا أقول ذلك صدقًا .. تغمرني الآن روائح الطيبين أمثال خديجة .. أشعر بترانيم العذراء تزفني ، أشعر بقبلة مريم على جبيني ، أشعر بصلاة تقام في داخلي ، آه يا حبيبي .. لعلها ابنتنا المسكينة تصلي لي في أحشائي و بيمناها قرآن ويسراها صليب .. صلي من أجلي يا حبيبي ولا تنس خليلتك .. لا تنس جوردينا .. حاشاك أن تنساها حاشاك .. تذكرني كما تذكر محمد خديجة .. إن دقات أجراس الكنائس و تكبيرات المسلمين تخالج نفسي و تطرب مسامعي الآن ، هناك سأنتظرك يا حبيبي في ملكوت أكثر سعة وعالم أكثر رحمة ، هناك حيث لا يوجد أناس تكن صدورهم مثقال ذرة من حقد أو ضغينة ، هناك حيث لا مدن ولا دول ولا حدود و لا عوائق ..

هناك ستجدني استقبلك كما كنت أفعل بالدنيا ... اتذكر عندما اردت استثارة غيرتي ذات مرة فرحت تحكي لي بأن هناك بنات جميلات يدعين حور عين ، حسنًا أعاهدك بأني سأتزين لك كي لا تغريك إحداهن ، سأحاول أن أحاذي جمالهن الأخآذ ، بل و أتفوق عليهن لأبق في نظرك جميلتك وحبيبتك الوحيدة جوردينا المسكينة ..

أودعك حبي و طفلتنا الجميلة ، حتما ستكون جميلة ما دامت ستكون مزيجًا منا ، أسأل الله أن يكلأها برعايته و أن يصب عليها رحماته ، لك حرية في تسميتها كما تشاء يا حبيبي ، المهم خبرني بذلك ، و ارني إياها .. لا يدهشك كلامي إذ أني أودعك وداع الموقن بالموت ..إن المرء يشعر بإقتراب رحيله متى حانت ساعته ، وكأن ملك الموت يهمس في أذنه قائلاً أحزم متاعك وكن على أهبة الاستعداد فقد حانت ساعة الوداع .. جوردينا المسكينة ستموت يا حبيبي .. أسألك أن تتذكرها كما ذكر محمد خديجة ..

اسمح لي يا حبيبي بطلب شيء منك .. لا تتركني هنا في هذه الأرض ..أنا أعرف أنك لا تحبها وما أرغمك عليها إلا شدة و أنا لا أريد أن أكون أنا من يجذبك للمكوث في أرض تكرهها ، أرجوك خذني إلى مكان أستطيع أن أستشعرك حولي و أنا ماكثة في قبري .. ضع جسدي الرقيق في أرض مصر تلك الأرض الوحيدة التي أحببتها وما زلت تحبها حتى نقلت عدوى حبها لي فعشقت أنا ثراها .. ضعني هناك يا حبيبي فهي أرض طيبة ..

أو فلتذهب بي إلى إسبانيا فكما قلت لك آنفا لو تذكر لابد من يوم يرجع الإنسان فيه إلى وطنه .. ضعني هناك لو لم تجد لنا مكان بمصر .. و أنت تعلم عنواني هناك ، خبر أبي قبلها وسيتخذ اللازم .. خبره برفق فهو مريض قل له إن ابنتك المسكينة جوردينا قد ماتت ".... اعتني بابنتنا جيدًا وأجعلني أراها وهي تكبر أمامي يومًا بعد يوم .. وداعًا يا حبيبي .. لا تنس جوردينا التي أحبتك بكل جوارحها " ..

خرج الطبيب للتو ونظر إلى الزوج المكلوم وهو غارق في دموعه ، كالأطفال ينتحب إنتحابًا شديدًا يمزق القلب فلما وقع بصره على الطبيب توقف برهة عن البكاء كأنما يستجدى عطفه كي يبل ريقه بكلمة تعكس كل ما قرأ .. لعلها دعابة سخيفة لعله كابوس لعله أى شيء آخر غير حقيقي ... ففرك الطبيب عينيه ثم عاود النظر لعين صالح فبادره صالح بنظرة يائسة تبلغ من الحزن و الإنكسار أن تفطر لها قلب الطبيب وقال له كلاما كثيرًا لكن الكلمة المهمة هي ما كان ينتظر صالح سماعها منه .. ماتت جوردينا إذا ..

اكل الحزن كبد صالح وطفق يبكي بكاءًا مريرًا إلى الحد الذي أبكى معه كل من توقف لحظة أمامه وهو على هذه الحالة ، الأطباء و الممرضون و عمال النظافة ، حلقة بكاء اكتمل نصابها فوق رأسه تمامًا كما اكتملت مصائب الدنيا وحطت رحالها وقيدت جيادها في سويداء قلبه ، اجتاح الحزن كل موضع في جسده ، افتقد جسده بكامله جسد جوردينا و فقدت روحه روحها الطيبة ، تمنى لو ذاب في شعاع شمس فلما تأفل الشمس تمتصه من الأرض فحقت فيه دعوة العذراء فكان نسيًا منسيًا ، تمنى لو توقف قلبه عن الخفقان فقبر مع حبيبته في مكان واحد ، تمنى لو استطاع تحطيم نفسه إلى شذرات ثم ليذروه مع الريح فيصبح مجرد ذرات في العدم لا يمكن للحزن أن يجمعها .. دارت فكرة الإنتحار برأسه ولكن منعه صوت قادم من رحم الموت ، ابنته ..

الأمر واقع لا محال .. ولا يفيد البكاء شيئًا مهمًا غزرت الدموع و طال أمده .. شرع في تنفيذ الوصية .. احتضن ابنته المسكينة ولم يجد بدًا من المحاولة في أرض مصر قبل أسبانيا لإعتبارات كثيرة أولها أن هذه رغبته أيضًا كما هي رغبة المسكينة جوردينا ... حقًا لابد للواحد أن يعود لوطنه حتى و إن كان تركه هاربًا إلى إسرائيل . قال لنفسه لابد أن هناك طريقة ما ثم ماذا سيحدث لو تم التعرف علي بمصر فأنا لست مدين لأحد بأي شيء ولم أقدم على فعل مشين أو ارتكب جرمًا ضخمًا يحاسب عليه القانون في مصر ، فليحاسبوا الرئيس السادات نفسه ، أول مصري يطأ بقدميه أرض ما تسمى بتل أبيب ..

ثم لن يحدث لأنه قبل كل شيء معه الجنسية الاسرائيلية .. كما أنه ما زال يتمتع بجنسيته المصرية ولم تسقط عنه ... ثم إن أهل مصر طيبون و يقدسون الموتى أكثر مما يقدسون الأحياء أنفسهم ..

هاتف صديقه ابلغه بالفاجعة التي يتكتم عليها كي لا تثار في الصحف .. أقنعه صديقه بعدم التواصل مع السفارة المصرية وليكن الأمر في طي الكتمان و إن المال ما زال له تأثيره هنا .. وبالفعل استطاع صاحبه أن يتواصل مع عضو مجلس الشعب ذو المكانة الرفيعة و الوثيق الصلة بدوائر السلطة وبعد دفع مبلغ ضخم له و مبلغ آخر على سبيل التبرع لإحدى المشاريع التي تنفذها الحكومة دعمًا لها ... منح له حق الدخول ولكن بشرط السرية التامة حفاظًا على ماء الوجه ... وأن يعيش باسم غير اسمه تمامًا .. وهذا ما وافق عليه ... دفع ما يقرب من نصف ثروته التي جمعها طيلة السنوات الفائتة ..

و تنازل عن اسمه مكرهًا ... ووصله في خلال يومين جواز سفر جديد باسم محمد عبدالعليم و جواز سفر لزوجته باسم ياسمين على الحناوي لاستخدامهم حالما ينزل مطار القاهرة .. وهذا أكثر بكثير مما كان يأمل .. لقد كان موقنًا بالرفض وما كان ليقدم على التفكير بهكذا جرأة وأن يتخذ خطوة مغامرة مثل هذه لولا الشدة التي تعرض لها ، فسبحان من يبعث مع الشدائد رحمة و مع الضعف قوة لا يستهان بها ..

احتدم الأمر لملم ما أمكنه من كتبه و ملابسه وفي معاد طائرته توجه للمطار مرافقًا لجثة حبيبته ومحتضنا طفلته الوليدة .. أقلعت الطائرة و وجد في الميعاد من ينتظره ليمر به عبر البوابات إلى أن وجد نفسه في شوارع القاهرة ومعه صاحبه الذي أعد له كل شيء و اشترى مقبرة بوسط مقابر باب النصر ..

قبرت المسكينة في أرض مصر كما أردات فكان بكاء طفلتها الرضيعة ممتزجًا ببكاء و نحيب الأب الملكوم .. رجعًا وفي الطريق أخبره عبدالعزيز بضرورة المضي قدمًا في الحياة والتفرغ لتربية هذه المسكينة ، و أن الشقة

التي اشتراها له بوسط البلد مجهزة من كافة الأشياء يجب أيضًا أن يغير أكثر في شكله يستحسن أن يطلق لحيته مثلا و أن يرتدي نظارة أو شيء من هذا القبيل و أن يندمج في الحياة مع اسمه الجديد وحياته الجديدة ، و سيحضر له خادمة عما قريب تساعده في تربية البنت و خدمته ..

وسأله ما اسم البنت ؟

فقال سأسميها جوردينا كما هو اسم أمها .. فلطالما تنازلنا عن أسمائنا فلنبق ولو على شيء واحد أصيل من ماضينا .

مرت الأعوام سريعًا ، أطلق لحية كثيفة ، طاف بالمساجد و بأضرحة أولياء الله ، و انغمس في بوتقة الصوفيين و صار واحدًا منهم ، ساعده ذلك كثيرًا في القبض على لحظات الصفاء النفسي و الوصول لمعان كثيرة في داخل نفسه و دبت الطمأنينة شيئًا فشيئًا في رحاب نفسه ، ولكن جذبه عبدالعزيز ذات يوم من هذا الطريق وقال له هذا طريق التيه ونصحه بأن يجد عملاً أو يفتح مشروعًا صغيرًا يدر عليه مكسبًا و يلتهم منه جزءًا من هذا الوقت المهدر الضائع ... فاستأجر دكان صغير يبيع فيه كتب ، لما لا وهي محبوبته الأولى ولم يستطع أن يحجب نفسه عنها .. عمل بالوصية وكان يأخذ ابنته جوردينا الصغيرة لزيارة والدتها يوما كل أسبوع و يحكي لها ما جرى خلال الأيام الفائتة و يريها ابنتها الجميلة التي هي صورة منها فحملت اسمها و رسمها معا إلا أن هناك لمحة بسيطة من السمار المصري ورثته عن الأب ..

كبرت جوردينا وعبرت مراحل التعليم الأساسي و الثانوي بجد وتفوق والتحقت بالجامعة، كلية الإعلام كانت رغبة مشتركة بينها و بين والدها ... فتفوقت فيها أيضًا ، وكانت تعجب لرؤية والدها على قدرٍ عالٍ جدًا من الثقافة على رغم أنه يرفل في ملابس بسيطة و يعمل عملاً بسيطًا بائعًا للكتب فكان يجيبها دائمًا بأن الكتب نقلت إليه عدوى الثقافة فحياته بين جدران من الكتب ، وعكف على توسعة دكانه فاستأجر دكان أوسع بالجوار و دمج الإثنين

ببعضهما البعض وأسماه " الكاتب الصغير " .. و عكف على لملمة كتب كثيرة في مختلف أنواع الأدب و الثقافة و أهتم بالأدب الغربي كثيرًا ، وصار له رواد كثيرون وجدوا ضالتهم عنده سواء في الكتب ذاتها أو فيما يحمله في رأسه من أفكار كثيرة و ثقافة لا حد لها تتفوق على ثقافتهم هم ، كما أن لغته الإنجليزية رائعة فكان يحاور مرتادوا المتجر من الأجانب بكل أريحية وهو ما جعل من متجره أنجح متاجر الكتب في وسط البلد وكان العجب يكمن في أن الناس يرونه عم محمد البسيط المثقف ..

ولم يكن يعرف أصل الحكاية إلا عبدالعزيز الملواني ... الذي ساعده في إمداده بالكتب في البدايات ولم يضن على صاحبه بشيء .. فنعم الصاحب هو .. يكفي أن يكون لك صديق واحد مخلص في هذا العالم فيكفيك العالم بأسره ..

وكان لتسمية المتجر بهذا الاسم دلالة كبيرة فلم يطلقه هكذا جزافًا ولكنه نذر نفسه ومتجره لخدمة صغار الكتاب فاغدق عليهم كتبه و نصائحه و أكمل لهم جملاً و وهبهم أفكارًا و خط لهم معان و دقق لهم لغتهم فنضجوا على يديه و لم ينسوه في إهداءاتهم فحملت غالبية الكتب شكرًا جزيلاً لعم محمد عبدالعليم المثقف الكبير كما لقبوه وأفاضوا في مدح كرمه وعطائه لهم الذى وهبهم إياه دون مقابل .. فكان يسعد أيما سعادة بهذه الكلمات الطيبة و يريها لجوردينا قائلاً هذا أباك البسيط يقولها بطريقة تدفع إلى إغاظتها وهو ما كان يحدث بينهما بشكل معتاد تنتابه ضحكات كثيرة وحب لا حد له .. يهرب بها من أسئلتها الكثيرة عن أمها ، الماضي ، الحاضر ، أهل أمها هل يعقل أنهم اختفوا جميعًا ؟ .. جوردينا لما هذا الاسم ؟ .. لما لا يزورنا أقارب ولا نعرف أحدًا من الناس سوى الأستاذ عبدالعزيز ؟

أسئلة كثيرة نمت بنمو عقل جوردينا و نمو إدراكها بالحياة حولها .. كان يقضيان أياما في نكد بسبب هذه الأسئلة التي لا إجابة لها ولكن سرعان ما يتصالحا ، ومن يمد يد الصلح أولا يعزمه الآخر على عشاء بالخارج كما هو

متبع في قوانين البيت الجميل فيتلاشى على إثر هذه العزومة ما كان من خلاف و يذوب في العدم .. فكان لها نعم الأب و المرشد و الصديق المخلص ..

في السنة الأخيرة لجوردينا في كلية الإعلام تعرفت على شاب يدعى أحمد القاضي زميل لها و نشب الحب خيوطه بينهما .

وكان أحمد سليل عائلة محترمة والده غني يعمل بالإستيراد و التصدير ، و تقدم لخطبة جوردينا .. وقابل عم محمد في متجره و أخبره فتقبله الرجل قبولاً حسنًا ، و فاتح ابنته ووجد أن لها رغبة قوية في الزواج منه .. فاحتضنها و قال لها معاتبًا إياها عتابًا مازحًا :

كبرت إذا يا جوردينة قلبي و ما عدتي تحتملين العيش مع عجوز أنهكه الهرم مثلي تفوح منه روائح الكتب ..

فأدمعها مزاحه وقالت سأحترم رغبتك مهما كانت ..

فقبل جبينها و قال مبارك عليك يا نور عيني .. إن نور الحب يتلألأ في بؤبؤ عينيكي فلا تداريه فالحب وحده هو ما لا يجب الخجل منه أو حجبه بل يجب أن نخبره للعالم كله ننثره في الهواء لو إستطعنا فيستنشق عبيره و يمرق سحره لحنايا عباد الله لعلهم يصبحوا من الواصلين ..

في الصباح الباكر ذهب لقبر الحبيب يرفل في دموعه ، و أخبرها بالفاجعة التي حطت فوق رأسه .. إن جوردينا ستتركه وحده .. و أخذ يحاكيها بصوت مسموع

إن هذا لشيء طبيعي و لكن قلبه حاز من الغباء ما يكفي لعدم وضع شيئًا مثل هذا في الحسبان .. وتناسى تمامًا أنها من الجائز أن تقع في غرام أحدهم ومن ثم تتزوجه و تتركه وحيدًا تلاطمه أمواج الخيبات الكثيرة التي مُني بها .. يترك هكذا مثل كلب شارع ضال لا صاحب له ..

مرت الأيام ثقيلة ، تغير وجه الدنيا و كشرت عن أنيابها وزاد تجهمها ...وغشى الحزن قلب المسكين وتملك منه .. ولكنه حاذر أن تلاحظ جوردينا تغيرًا طرأ عليه .. ولكن خارت قواه و هرم وهزل جسده ومرض مرضًا ألزمه الفراش و تحجج بأنه أهلك نفسه في المتجر ، في هذه الآونة استأذن أحمد لزيارته في البيت فأذن له فأقبل عليه مقبلاً جبينه و معتذرًا له عما يحدث فقد أفاض له في الحكي و أبلغه بأنه يقدر جدًا مشاعره و يعرف أنه حزين على فراق جوردينا له كونها هي الوحيدة التي تعيش بجانبه ، فطمأن قلب المسكين قائلاً بالأمس كان يعيش بجانبك شخص واحد أما بعد ذلك فتهيأ لقبول شخص آخر يقاسمك المعيشة ... سنكون معك و في خدمتك وتحت أمرك و سأضع جوردينا في قلبي و سأحافظ عليها كمحافظتي على بؤبؤ عيني ..

تعافي بعد هذه الزيارة و مرت الأيام فغيرت ما كان ، تزوجت جوردينا و جرف تيار الحياة وعود أحمد للأب الذي ترك للوحدة تأكله .. فكان يمضي النهار كله من الفجر حتى النجر في خدمة متجره و رواد متجره و أسئلة الكتاب الصغار ، أما الليل فكان يناجي فيه ذكريات الأيام الخوالي ... أتاحت له هذه العزلة أن يكتب إجابات لأسئلة الإبنة العزيزة التي تركته فلم يحظ بمثل هذه الوحدة و هذا الفراغ القاتل من قبل إبان عيش ابنته معه .. فكان أفضل ما يجيب على الأسئلة هو قصة حياته فبدا في سردها منذ أن قدم للقاهرة والتقاؤه بصاحبه و تجاربه في الكتابة بمصر مرتين و مر التجربة و السجن و الهجر و المحاولة و الفشل ثم الهجرة و الكتابة مرة أخرى و ما حظي به من حفاوة عالمية ثم لقاء جوردينا الأم و الحب الذي تألف بين قلوبهما ، إلى حد موت الحبيبة و تغيير الأسماء و العيش بهوية مغايرة لهويته وإلى الكاتب الصغير .. لم يقدم صالح على هذه الخطوة إلا لشعوره بأن شيئًا ما بداخله يدفعه دفعًا لفعل ذلك ... ولما انتهى من كتابه أودعه صندوقه الكبير الموضع في غرفته بجانب سريره مع الثلاث روايات الذي انتهى منهما منذ فترة لكنه لم يجد أسلوبًا مناسبًا و طريقة آمنة لنشرهم ... فالخوف الآن أصبح خوفين الأول

خوفه من تكرار نفس السيناريو من نقد لاذع كاذب يدخله السجن ، و الثاني خوف من إفتضاح أمره كما نصحه صاحبه عبدالعزيز الذي أكد له أنه إذا كتب الروايات باسمه الجديد فإن أسلوبه فاضحه .. سيكتشف أمره منذ البداية... فآثر أن يكتب ثم يبدد ما كتبه قبل إكتماله ولم يكمل إلا ثلاث روايات نفذت من الحكم بالإعدام تمزيقا ورميًا في سلة القمامة .. حفظهما في دولابه بالبيت ، ومرت الأيام و الليالي ثقيلة على ظهره الذي لم يجد بدًا هو الآخر من الإنحناء ، انحنى ظهره و مرض كل شئ فيه وذبل وجهه وبدا نحيلاً مثل عود قش , وانكمشت بشرته وأصفر و لم يستطع المكوث في متجره كثيرًا فكان في أوقات كثيرة يغادر قبيل المغرب ثم صعب الأمر عليه فكان يصر على النزول ثم لا يمكث أكثر من ساعة أو ساعتين و يعود للبيت مرة أخرى ، إلى أن خارت قواه و عجز عن مجرد القيام من مرقده ، اتصل بصاحبه فأتى عبدالعزيز مسرعًا ومعه الطبيب وبعد الكشف نصحه الطبيب بالراحة التامة ..

وقال لصاحبه .. آذنت الشمس بالمغيب يا أخي ، سمرة المساء تنتشر وتحط رحالها فوق رؤوس الأشجار قبل أن تهبط على الأرض فتكسوه بظلمة حالكة ، فالبدر خافت إلى الحد الذي لا يتوقع إنبعاثه من جديد وكأنه اختفى وذاب في كبد السماء للأبد ..

اسرعت الإبنة بالعودة سريعًا بعد مهاتفة عمها عبدالعزيز لها ، جائت مسرعة وما أن دخلت على أبيها حجرته حتى جثت على ركبتيها وطفقت تقبل يداه ورأسه و تبكيه بحرقة ، و تناديه فينتبه لها تارة و يغيب عن الوعي تارة أخرى ، كانت هي دون غيرها سكرة الموت .. في الإفاقة الأخيرة له إنتبه إليها جيدًا وأخذ يحاورها وكأنه تعافى من جميع أمراضه وتعلقت عبرة بعينه وأخذ يرتجف في غير قدرة منه على الإمساك بنفسه ، فقد السيطرة على نفسه، فجاهد كثيرًا بشق الأنفس كي يخبرها بشئ هام جدا ، طلب منها أن تفتح باب دولابه لتجد في أحد الأدراج بالأسفل صندوقًا خشبيًا قديما ففعلت ذلك و أخرجت ما بداخله فكان كتيبًا كبيرًا يحمل اسم الكاتب الصغير وبجانبه رسالة

، قال لها هذا الكتاب يجيب على جميع أسئلتك التي لم تجدى لها إجابة طيلة الأعوام السابقة ، هذه قصتي أنا قصة الكاتب الصغير منذ بزوغ فجره الأول وحتى خفوته للأبد مرورًا بأحداث جلل ، بداخله ستكتشفين كل شئ و ربما تحتقرين أباك لأنه أخفى عنك كل هذه المعلومات ولكن ما فعلته إلا خوفا عليكي و على حياتنا ... على كل حال فهذا الكتاب الآن بين يديكي لكي حرية التصرف فيه فإما تنشريه وتعلميه للعالم كله ، و إما تحتفظين به بنفسك .. أو تمزقينه وكأنه لم يك شيئًا مذكورًا ..

و أما الرسالة فهي رسالة من أمك الحبيبة جوردينا قبيل وفاتها .. نعم هذا هو اسمها الحقيقي الآن عرفتي لماذا أسميتك بهذا الاسم .. فلم تنطق جوردينا الابنة ببنت شفة و بتلقائية فتحت الرسالة وبادرت بالقراءة .

أما الأب فبات في حال يرثى لها غرق في بكاء الموت الذي يمزق القلب ، وأخذ جسده ينتفض ويعرق بشدة وجحظت عيناه وأخذ يردد .. تغمرني الآن روائح الطيبين أمثال خديجة ، أشعر بترانيم العذراء تزفني ، أشعر بقبلة مريم على جبيني ، إن دقات أجراس الكنائس و تكبيرات المسلمين تخالج نفسي و تطرب مسامعي الآن ، أنا قادم لكي يا حبيبتى لنعش سويًا في ملكوت أكثر سعة وعالم أكثر رحمة ، هناك حيث لا يوجد أناس تكن صدورهم مثقال ذرة من حقد أو ضغينة ، هناك حيث لا مدن ولا دول ولا حدود و لا عوائق .. أنا قادم يا حبيبتي مدي إليّ يدك الطاهرة كما مددتيها لي مرارًا في الدنيا ، قادم أنا إليكي اليوم ستعرفين كم كنت وفيًا للوعد ... أنا آت إليك يا جوردينا ..

آت إليك يا حبيبتي ..